الباب الثانى

أهمية الأخلاق فى الإسلام

الفصل الأول: مكانة الأخلاق فى الإسلام.

الفصل الثانى: ضرورة مكارم الأخلاق للمجتمعات الإنسانية.

الفصل الثالث: دور الخلق فى الإسلام.

الفصل الرابع: أهم الأسس الأخلاقية فى نظر الإسلام.

الفصل الخامس: المسئولية الأخلاقية.

الفصل الأول

مكانة الأخلاق فى الإسلام

إن أى مجتمع من المجتمعات الإنسانية – على وجه الأرض – لا يستطيع أفراده أن يعيشوا متفاهمين سعداء ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الكريمة، لهذا كانت مكانة الأخلاق فى نظر الإسلام غاية فى الأهمية. ولذلك جعل الله الأخلاق مناط الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة، فيعاقب الناس بالهلاك فى الدنيا لفساد أخلاقهم ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ... ﴾ (١) ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (٢)، ويكافئ الأبرار الصالحين بالجنة ويعاقب الفجار والأشرار يوم القيامة، ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ (٣).

وقال الرسول ﷺ (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) [رواه البخارى].

وقد قرن الله تعالى بر الوالدين والشكر لهما بالشكر لله وبعبادته، فقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (٤).

وعدَّ عقوق الوالدين من أكبر الكبائر بعد الإشراك بالله، فقال الرسول ﷺ: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور» [رواه البخارى].

لكن لماذا هذا الاهتمام بالأخلاق؟

والسبب فى اهتمام الإسلام بالأخلاق، هو أن الأخلاق أمر لا بد منه لدوام الحياة الاجتماعية وتقدمها من الناحية المادية والمعنوية، ولنتصور – مثلاً – حياة مجتمع من المجتمعات أهملت فيه المبادئ الأخلاقية. وسادت فيه الخيانة والفسق والكذب والغش والسرقة وسفك الدماء

(١) سورة يونس الآية ١٣.
(٢) سورة الأحقاف الآية ٣٥.
(٣) سورة الإنفطار الآية ١٣ – ١٤.
(٤) سورة لقمان الآية ١٤.

والتعدى على الحرمات والأعراض، وزالت كل المعانى الإنسانية فى علاقات الناس من المحبة والنزاهة والتعاون والتراحم والإخلاص .. إلخ، فهل من الممكن أن تدوم الحياة الاجتماعية فى هذه الحالة؟! لا شك فى أن الحياة عندئذ تتحول إلى جحيم لا يطاق، ويتحول الناس إلى وحوش ضارية أكثر من وحوش الغابات، ويشقون شقاء ما بعده شقاء. لأن الإنسان بحكم طبيعة خلقته بحاجة إلى الغير، وفى طبيعته نزعة التسلط والتكبر والأنانية والانتقام فإذا استخدم هذه القوى فى الفساد أهلك الحرث والنسل، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ (١).

ولهذا:

فإن الإسلام بحاجة إلى نظام أخلاقى يحقق له حاجاته الاجتماعية، ويقف أمام ميوله ونزعاته الشريرة، ويوجهه إلى استخدام قواه فى ميادين يعود نفعها على نفسه وعلى غيره بالخير. ولهذا أمر بالتعاون الاجتماعى فى تحقيق الخيرات، ونهى عن التعاون فى الإثم والعدوان، فقال تعالى ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾ (٢).

الأخلاق فى القرآن والسنة

الأخلاق الإسلامية تبدو متغلغلة فى كل فروع المعرفة الإسلامية يؤكدها القرآن الكريم والحديث النبوى، وتمكن لها النصائح والآداب العامة، وتتغنى بها الأشعار وتمتدحها القصص والأمثال. ثم إن الله تعالى أرسل الرسل والأنبياء يحملون الهداية والدعوة إلى الله تعالى، ويدعون فى رسالتهم السماوية إلى منهج أخلاقى ثابت حدد البارى سبحانه معاييره وقواعده بحيث لا يمكن أن تستقيم الحياة الفردية أو الجماعية بدونها. وكان خاتم الرسل والأنبياء محمد ﷺ الذى أبلغه رب العزة: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (٣).

لقد رحم الله البشرية كلها فى كل مكان وزمان برسول الرحمة الذى حمل لهم تمام التشريع وكماله فى الكلام الموحى، القرآن الكريم الذى ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ (٤). وكان للنبى ﷺ كمال السلوك والسيرة، وكان القدوة الصالحة حيث تميز بالتمام المطلق من كل نوع من أنواع السلوك الفاضل.

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٤ – ٢٠٥.
(٢) سورة المائدة الآية ٢.
(٣) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.
(٤) سورة فصلت الآية ٤٢.

ففى رسالة محمد ﷺ اقترن التشريع بالتطبيق، لذلك بات صلاح الإنسان وخير المجتمعات فى السعى لتطبيق الأخلاق الإسلامية، التى لا يأتيها الباطل، ولا يشوبها ميل شخصى كما هو الحال فى الفلسفات الأخلاقية الوضعية.

بعد هذا الهدى المحدد للقيم الأخلاقية يصبح واجب المفكرين المصلحين ليس البحث عن قواعد الفلسفة الأخلاقية – عند الغرب – وإنما واجبهم أن يجتهدوا فى الشرح والتفصيل والأخذ بيد الناس كى يلتزموا شرع الله تعالى، وبما جاء فى سيرة النبى الكريم ﷺ.

أولاً: الأخلاق فى القرآن

القرآن الكريم وموقفه من الأخلاق:

الأخلاق فى القرآن الكريم تفرض سلطانها على جميع وجوه النشاط البشرى سواء ما اتصل منها بعلاقة الإنسان مع نفسه، أم مع بنى جنسه فى الفرد والمجتمع بل يتخطى ذلك كله إلى علاقة الإنسان بالكون كله. وإذا كان الله عز وجل هو خالق الإنسان فهو الأقدر على صيانته والأعلم بما يصلحه، وإذا كان القرآن، هو كتاب الله الذى أنزله لهداية الناس فلابد أن يجدوا فيه إطارا كاملًا لدستور أخلاقى فيه سعادة البشر وصلاحهم، لأنه جاء من رب العالمين، ونزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ إلى العالمين.

ثم إن لفظ «خلق» جاء فى القرآن الكريم مرتين، وإن كان القرآن الكريم كله مليئًا بمبادئ الأخلاق السامية التى ترتبط بالعقيدة الصحيحة كما ترتبط بالوجه الآخر للتشريع.

● **الآية الأولى:** قال تعالى ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [1]، فقد وردت هذه الآية فى سياق آيات أخرى (من الآية ١٢٣ : ١٤٠ سورة الشعراء) من أجل تقبيح خلق الجبابرة الظالمين، يتجبرون حين يبطشون ولا يتحرجون فى القسوة فى البطش ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [2] هؤلاء هم قبيلة عاد وهم قوم هود عليه السلام فقد دعاهم لعدم التعلق بالدنيا والتطاول فى العمران، وأن يعبدوا الله فذلك أقوم وأفضل لهم. لكنهم لم يستجيبوا لدعوة نبيهم (هود) عليه السلام محتجين بحجة واهية، مفادها أنهم سائرون على نهج الأولين وهم يستبعدون وقوع العذاب على خلق الأولين.

لكن الأمر ينتهى فى كلمتين حاسمتين ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ [3]، لقد حبس الله عنهم المطر ثلاث سنوات نتيجة لسوء خلقهم، وهبت عليهم الريح العقيم فسلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما، أى شؤما فصارت أجسادهم كأنهم أعجاز نخل خاوية.

---

(١) سورة الشعراء الآية ١٣٧.

(٢) سورة الشعراء الآية ١٣٠.

(٣) سورة الشعراء ١٣٩.

● الآية الثانية: التى ورد فيها لفظ (خلق) وهى تمثل القسم الثانى من الأخلاق وهو الخلق الحسن. وهذه الآية الكريمة هى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [1] إن وصف محمد ﷺ بالعظمة الأخلاقية، لم يرد لأى إنسان بهذه الصورة فى القرآن الكريم، وفى الآية لفت نظر للناس إلى أن مبلغ هذه الرسالة العظمى ليس إنسانًا عاديًا وإنما هو مؤهل بأجمل الأخلاق.

قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية: (على خلق) على دين عظيم من الأديان ليس دين أحب إلى الله تعالى منه، وفى صحيح مسلم عن عائشة حينما سئلت عن خلقه ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن» .

القرآن دعوة أخلاقية:

القرآن الكريم هو كتاب الله الذى أنزله لهداية الناس أجمعين، وهو دستور أخلاقى فيه سعادة البشر لأنه يدعو الناس إلى خصال الخير وإلى مكارم الأخلاق، وهو الكتاب الجامع لأسمى المبادئ وأقوم المناهج وخير النظم، والحافل بكل ما يحتاج إليه البشر من أمور الدين والدنيا، فهو يرسم للناس طريق العبادة من الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والذكر والفكر، والدعاء، والجهاد، والإخلاص، والتوكل، والرجاء، والخشية، والحب، والتوبة، والإنابة .. الخ، ليربطهم بالله فتتهذب نفوسهم، وتقوى إرادتهم، وتسمو أرواحهم إلى مدارج العزة والكرامة، ولتتجرد من ماديات هذه الحياة وتتجه إلى خالقها وبارئها لتستمد منه النور والهدى، وتستعين به على الاضطلاع بأمانة الحياة ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [2].

وهذه العبادات كلها سهولة ويسر لا مشقة فيها ولا عسر.

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [3].

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [4].

وأفاض القرآن الكريم فى النواحى الأخلاقية والآداب العامة والخاصة والفضائل التى تنهض بالفرد وترقى بالجماعة، وألح فى الدعوة إليها والحث عليها ليكتمل المجتمع الإنسانى، ويصل إلى المنزلة التى يكون بها أهلًا للخلافة فى الأرض:

(١) سورة القلم الآية ٤.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٢ - ١٦٣.

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٥.

(٤) سورة الحج الآية ٧٨.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ (١) .

بالإضافة إلى هذا فإنه يضع النظام الذى يربط الإنسان بأخيه الإنسان، ويحدد الصلات بين الأفراد بعضهم ببعض فى التعاون وسائر المعاملات، لدرء الخصومة ورفع النزاع، ويشرع الشرائع الاجتماعية التى تنظم:

- التشريع الأسرى كالزواج والطلاق والوصية والمواريث...
- التشريع المالى المتعلق بمعاملات الناس كالبيع والشراء والرهن والإجارة ..
- التشريع الحربى المتعلق بالقتال والحرب والسلم وعلاقة الدولة الإسلامية بغيرها..
- التشريع السياسى المتعلق بنظام الحكم والسياسة العادلة..
- الآداب الشرعية والاجتماعية من الاستئذان والتحية والاحتشام..

وغاية القرآن من ذلك كله أن تعم الأخلاق الفاضلة المؤمن الصالح والأسرة المسلمة والمجتمع الفاضل والحكومة الصالحة ليتألف من هؤلاء جميعًا كيان إسلامى قوى يقيم الحق والعدل ويرفع الظلم، ويدفع العدوان، لتكون له خلافة الأرض.

***

(١) سورة الأعراف الآية ٣٢ – ٣٣.

ثانيا: الأخلاق فى السنة

السنة مصدر من مصادر التشريع:

السنة هى المصدر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى الذى يلى القرآن فى تبيان عقائد الإسلام وعباداته، وآدابه وشرائعه، وهى بهذا المعنى تقرر ما فى القرآن وتؤكده، وتبينه وتفسره، كما أنها تستقل بتشريع الأحكام، وتنص على تحليل الحلال، وتحريم الحرام مما لم يرد فى القرآن له نص: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (١) وفى هذا يقول رسول الله ﷺ: «ألا وإنى قد أوتيت الكتاب ومثله معه..» [رواه أبو داود] أى أوتيت مثل القرآن فى تشريع الأحكام مما لم يرد له فى القرآن نص.

عن معاذ أن النبى ﷺ أرسله إلى اليمن وقال له: كيف تصنع إذا عرض لك قضاء؟

قال: أقضى بما فى كتاب الله.

قال ﷺ: «فإن لم يكن فى كتاب الله؟» .

قال: فبسنة رسول الله ﷺ.

قال ﷺ: «فإن لم يكن فى سنة رسول الله؟» .

قال: أجتهد رأيى لا آلو.

قال معاذ: فضرب رسول الله ﷺ فى صدرى، ثم قال: «الحمد الله الذى وفق رسولَ رسول الله لما يرضى رسول الله ﷺ» [رواه أبو داود] .

وعن ابن مسعود ﷺ قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله، فقالت له امرأة فى ذلك فقال: وما لى لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ، وهو فى كتاب الله؟ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [رواه الشيخان] .

ومن ثم حرص ﷺ على أن تذاع سنته، وأن تنتشر تعاليمه وتكون نورًا يستضاء به، ولتتحقق القدوة به فى قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢).

وعن العرباض بن سارية ﷺ قال: وعظنا رسول ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا قال: «أوصيكم بتقوى الله

(١) سورة النحل الآية ٤٤.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١.

والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبد حبشى، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة» [رواه أبو داود].

وأهل السنة هم الغرباء المصلحون: ففى حديث الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء».

زاد الترمذى فى تفسير الغرباء أنهم هم «الذين يصلحون ما أفسد بعدى من سنتى» ورجال السنة هم رجال الحق الذين يذودون عنه حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

روابط المجتمع الإسلامى وأخلاقياته

يهتم الإسلام بالمجتمع ويضع الأسس الثابتة التى يقوم عليها بنيانه، والخطوط العريضة التى تصون كيانه، وتحفظه من التصدع والسقوط، إنه يربط المسلمين جميعًا بعضهم ببعض برباط هو أوثق الروابط، وهو رباط الأخوة الدينية التى تذوب أمامها الفوارق: من نسب عريق، ومال وفير، وجاه عريض.. وهذه الأخوة تكتسب بمجرد الدخول فى الإسلام.

الأخوة فى الله:

يقول الرسول ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» [رواه الشيخان].

ويقول أيضا: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله» [رواه مسلم].

ومن حق المسلم على المسلم أن يحفظ عرضه، ويصون حرمته فى حضوره وغيبته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ويقول رسول الله ﷺ: «من رد عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة» [رواه الترمذى].

إصلاح ذات البين:

على المسلمين أن يسارعوا إلى إصلاح ذات البين، وتقوية الروابط إذا تعرضت لوهن أو ضعف، ولا تقل أهمية هذه المسارعة عن أهمية المسارعة إلى الصلاة وغيرها من العبادات، فعن أبى الدرداء ﷺ أن النبى ﷺ قال: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟

قالوا: بلى.

قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هى الحالقة» [رواه الترمذى].

والإصلاح بين الطوائف المتخاصمة أمر حتمى ولو لم يتم ذلك إلا بالعنف محافظة على الكيان العام للجماعة، وإبقاء لعلاقات المودة والإخاء .. يقول الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ

إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ (١).

الحب فى الله:

ألحب فى الله له مكان فسيح فى المجتمع الإسلامى، والمتحابون فى الله يتبوءون منازل الكرامة ويبلغون درجات الصديقين، فعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: « إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلال الله، اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى» [رواه مسلم].

وزيارة أخ فى الله على محبة وشوق تستوجب محبة الله وتدخل الجنة، قال الرسول ﷺ: «ومن عاد مريضًا أو زار أخًا فى الله، ناداه مناد من السماء أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً» [رواه أبو داود].

وروى مسلم عن أبى هريرة عن النَبى ﷺ: « أن رجلا زار أخًا له فى قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟

قال: أريد أخًا فى هذه القرية.

قال: هل لك عليه من نعمة تربها عليه؟

قال: لا. غير أنى أحببته فى الله تعالى.

قال: فإنى رسول الله إليك أخبرك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه» [رواه مسلم].

وقال معاذ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتى للمتحابين فىّ، والمتجالسين فىّ، والمتزاورين فىّ، والمتباذلين فىّ» [رواه مالك].

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» [رواه مسلم].

دعوة السنة إلى الأخلاق الحسنة وبيان آثارها الطيبة:

كان الرسول ﷺ يوصى أصحابه بالالتزام بالأخلاق الحسنة ويحثهم عليها، من ذلك أنه قال لأبى هريرة ﷺ: «يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق» قال أبو هريرة وما حسن الخلق يارسول الله؟ قال: «تصل من قطعك وتعفو عَمَّن ظلمك وتعطى من حرمك» [رواه البيهقى].

ومن خلال دراسة أحاديث رسول الله ﷺ أضع بين يدى القارئ الكريم بعضًا من أحاديث رسول الله ﷺ التى تتحدث عن مكارم الأخلاق لما لها من آثار طيبة تعود على الفرد والمجتمع.

١ – عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم» [رواه الترمذى].

---

(١) سورة الحجرات الآية ٩.

٢ – عن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق وإن الله يبغض الفاحش البذيء» [رواه الترمذي].

«البذيء»: هو الذي يتكلم بالفحش، وردىء الكلام.

٣ – وقال ﷺ: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق» [رواه البزار عن أبي هريرة].

٤ – وعن أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال له: «يا أبا ذر لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق» [رواه ابن حبان].

٥ – عن أنس رضي الله عنه قال: لقي رسول الله ﷺ أبا ذر فقال له: «يا أبا ذر ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر وأثقل على الميزان من غيرهما؟».

قال: بلى يا رسول الله قال: «عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فو الذي نفسي بيده ما عَمِلَ الخلائق بمثلهما» [رواه الطبراني].

٦ – وعن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس خلقًا [رواه الشيخان].

٧ – وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم في افتتاح الصلاة: «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت» [رواه مسلم].

وروى الترمذي عن عبد الله بن المبارك – رحمه الله – في تفسير حسن الخلق.

قال: هو طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى.

وقال أيضا: حسن الخلق في ثلاث خصال: اجتناب المحارم، وطلب الحلال، والتوسعة على العيال.

وقال الحسن: حسن الخلق: بسط الوجه، وبذل الندى وكف الأذى.

وقال آخر: حسن الخلق: أن يكون من الناس قريبا، وفيما بينهم غريبًا.

علامات الخلق الحسن:

قالوا في علامات صاحب الخلق الحسن، أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، برًا وصولًا، وقورًا، صبورًا شكورًا، رضيًا حليمًا، وفيًا عفيفًا، لا لعانًا ولا سبابًا، ولا نمامًا ولا مغتابًا، ولا عجولًا ولا حقودًا، ولا بخيلًا ولا حسودًا، بشاشا هشاشا، يحب في الله ويبغض في الله ويرضى في الله، ويسخط في الله.

هذه طائفة من آيات الذكر الحكيم ومن أقوال الرسول الكريم ثم من آثار السلف الصالح، وهي قليل من كثير تدلنا دلالة قاطعة على أن لحسن الخلق آثارا طيبة تعود على الفرد والمجتمع فى الدنيا والآخرة.

ومن الأشياء المعروفة لدى العامة أن حسن الخلق يعد مفتاحًا للرزق ومجلبة للخير، وقيل فى الأمثال العربية: «إن فى سعة الأخلاق كنوز الرزاق.

الفصل الثانى

ضرورة مكارم الأخلاق للمجتمعات الإنسانية

إن الأخلاق الإنسانية ضرورة حية للأفراد والمجتمعات لما تنطوى عليه من مبادئ ومثل إنسانية عليا، تصلح للإنسان بصرف النظر عن زمانه ومكانه، لأنها من وضع خالق البشر العليم بخلقه وما يناسبهم من مبادئ الأخلاق، بل الإنسان اليوم فى حاجة ماسة إلى الأخلاق الإنسانية من أى وقت مضى، خاصة ونحن فى عصر تحكمت فيه الشهوات فى نفوس الناس، وضاعت الأخلاق الفاضلة بعد أن أبعد الإسلام من مجال التطبيق العملى، فشاعت فيه الرذائل التى أثمرتها مناهج البشر وأنظمتها والتى اهتمت بالجانب المادى من الإنسان على حساب الجانب الروحى.

لقد دلت التجارب الإنسانية، والأحداث التاريخية على أن ارتقاء القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لارتقائها فى سلم الأخلاق الفاضلة، ومتناسب معه، وأن انهيار القوى المعنوية للأمم والشعوب ملازم لانهيار أخلاقها، ومتناسب معه فبين القوى المعنوية والأخلاق تناسب طردى دائمًا، صاعدين وهابطين.

وإذا أردنا أن نوضح بالأمثلة حقيقة كون الأخلاق تمثل المعاقد التى تعقد بها الروابط الاجتماعية تواردت علينا أمثلة كثيرة جدًا ومنها:

فضيلة الأمانة كمثال من أمثلة مكارم الأخلاق.

إن الأمانة بوصفها خلقًا ثابتًا فى الفرد المسلم ومعقدًا من معاقد الروابط الاجتماعية، تنعقد عليه ثقة الناس بما يضعون بين يديه من مال أو سلطان، وبما يمنحونه من وجاهة وثقة، وبما يكلون إليه من أمور عامة وخاصة ونستطيع أن نبنى على هذه المقدمة، أنه متى انهارت فى الإنسان فضيلة الأمانة انقطعت ما بينه وبين مجتمعه رابطة من الروابط الاجتماعية، وغدا الناس لا يأمنونه على أى شىء ذى قيمة معتبره لديهم – خاصًا كان ذلك أو عامًا – لأنهم يقدرون أنه سوف يسطو عليه لنفسه، بعد أن أمست رذيلة الخيانة هى الخلق الذى وجدوه فيه.

فضيلة الصدق كمثال من أمثلة مكارم الأخلاق.

إن الصدق بوصفه خلقًا ثابتًا فى الفرد المسلم ومعقدًا من معاقد الروابط الاجتماعية، تنعقد عليه ثقة المجتمع بما يحدث به ويخبر عنه فى مجال التاريخ والأخبار وفى مجال العلوم

المختلفة، وفى مجال المعاملات المادية والأدبية، ونستطيع أن نبنى على هذه المقدمة أنه متى انهارت فى الفرد فضيلة الصدق انقطعت بينه وبين مجتمعه رابطة عظمى، وغدا الناس لا يصدقونه فيما يقول، ولا يثقون به فيما يحدث به أو فيما يَعد، فلا يكلون إليه أمرا، ولا يعقدون بينهم وبينه عهداً، ولا يواسونه إذا اشتكى لهم من شدة لأنهم يرجحون فى كل ذلك كذبه، بعد أن أمست رذيلة الكذب هى الخلق الذى وجدوه فيه.

فضيلة العفة كمثال من أمثلة مكارم الأخلاق.

إن العفة بوصفها خلقًا ثابتا فى الفرد المسلم ومعقدا من معاقد الروابط الاجتماعية تنعقد عليه ثقة الناس به فى أعراضهم، وبهذه الثقة تأمنه الأسرة على عرضها إذا غابت، ويأمنه الجار على عرضه إذا ترك منزله، وتأمنه الزوجة إذا خرج إلى عمله، والمرأة العفيفة كذلك تكون موضعا للثقة بها عند الغيبة عنها. ومتى انهارت فى الإنسان فضيلة العفة لم يأمنه الناس على أعراضهم، ولم يأمنوه على بلادهم ومصالحهم العامة، لأنهم يقدرون أن أعداءهم سوف يسهل عليهم صيده من مغمز عفته المنهارة، ثم تسخيره فى خدمة أغراضهم.

وبذلك تنقطع بينه وبين مجتمعه رابطة من الروابط الاجتماعية الهامة.

وهكذا نستطيع أن نقيس على هذه الأمثلة سائر مكارم الأخلاق، كالعدل، والجود، والوفاء بالعهد والوعد، والحياء، والإحسان، والمروءة، والأمانة والشجاعة، والعطف على الناس، وغير ذلك من فضائل الأخلاق ومكارمها، وانهيار كل خلق من مكارم الأخلاق يقابله دائما انقطاع رابطة من الروابط الاجتماعية وبانهيارها جميعًا تنهار جميع الفضائل الخلقية فى الأفراد، وبذلك تنقطع جميع الروابط الاجتماعية، ويمسى المجتمع مفككًا منحلًا.

فالإنسان فى الإسلام لم يخلق لمجرد المأكل والمشرب، بل لكى يحقق ذاته وسعادته الحقيقية من خلال اتباعه لقيم الخير واجتنابه للشر، وتحليه بأفضل القيم الخلقية، وبأفضل الأعمال التى تمكنه من اكتساب حب الناس واحترامهم، وحب الله تعالى الذى يورث الإنسان دار الخلد والنعيم المقيم.

وإلى هذه الغايات تشير الآيات الكريمة، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾ (٢).

---

(١) سورة هود الآية ٧.

(٢) سورة الملك الآية ١ – ٢.

إذن فوظيفة الإنسان فى هذه الحياة هى وظيفة أخلاقية، فهذه الآيات تدفع الإنسان إلى يقظة الضمير دائما، وتجعله واعيًا بالخير والشر [1] ، فيكون أحسن أخلاقا وعبادة وسلوكًا فى الحياة.

ومن هنا زوده الله بالملكات الإنسانية من العقل والسمع والبصر، ليميز بين الفضائل والرذائل، وبين الخير والشر، ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [2] ويقول أيضا ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [3].

إن السمع والبصر للابتلاء والاختبار بمعرفة الخير والشر والضلال والهدى من أجل اتباع الخير واجتناب الشر، وبذلك تكون وظيفة الإنسان فى هذه الدنيا وظيفة أخلاقية.

- ١ -

الأخلاق ضرورة عصرية

تتردى المجتمعات المعاصرة، خاصة فى أوربا وأمريكا فى واقع اجتماعى مأساوى فمن العلاقات الجنسية الشاذة إلى الإباحية المفرطة فى هذا المجال وصولًا إلى الإدمان على الكحول الذى بات معضلة تشل طاقات الكثيرين، مما دفع بالحكومات لأن تسعى جادة من أجل إيجاد الحلول لهذه المعضلات، بالإضافة إلى التفكك الأسرى وتناقص عدد السكان، وذلك الفراغ الروحى الذى يعيشه إنسان مجتمعاتهم، حيث لا يجد من يواسيه إذا أصيب بمصيبة، ولا من يشاركه أفراحه ووجدانه إذا كان فى حالة سرور أو ألم، مما ولد قلقًا وتشاؤمًا يتلف حياة الأفراد فى مجتمعاتهم.

ومع أن الإنسان – فى مجتمعاتهم – حاول القضاء على هذا الشعور الأليم كما حاول التغلب على يأسه اللاشعورى بروتين التسلية والاستهلاك السلبى للأصوات والمشاهد التى تقدمها له صناعة التسلية، فضلًا عن التجائه إلى لذات شراء الأشياء الجديدة ثم استبدالها بغيرها .. إلخ ولكن هذه الأساليب المصطنعة لم تستطع أن تحقق له الشعور بالأمن والإحساس بالطمأنينة [4].

إن المدنية الحديثة – مدنية الكم والمقدار – استطاعت أن تحقق تقدمًا ماديًا بحتا شمل مختلف مجالات التصنيع، لكنها لم ولن تستطيع إشباع الجانب الروحى للإنسان، فالتقدم

(١) فى ظلال القرآن / سيد قطب.

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٦.

(٣) سورة البلد الآية ٨ – ١٠.

(٤) بتصريف من الأخلاق فى الإسلام الفلسفة القديمة/ أسعد السحمرانى/ دار النفائس/ بيروت.

المادى الهائل ينعكس تدهورا هائلا فى سمات إنسانية الإنسان، وحياته الآدمية مما انعكس أنحرافًا أخلاقيًا جعل من مجتمعات أوربا وأمريكا جحيما لا يطاق.

والحل ليس فى فلسفات ينظر فيها فلان أو فلان، وإنما إنقاذهم يكمن فى العودة إلى رحاب الإيمان، لأن قيم الأخلاق الفاسدة التى أدت إلى انحطاط مجتمعاتهم ما هى إلا انعكاس لتلك الفلسفات الوضعية التى ادَّعوا أنها عقلانية، والتى سادت كل مجالات حياتهم.

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحى دينا
ومن رضى الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قرينا

إن نمط حياتهم على رغم كل التقدم المادى، جعل منها حياة تفتقر إلى أبسط المقومات الإنسانية، وأنتج خللا فى علاقات الناس بعضهم ببعض، فإذا بالحرية الفردية المفرطة دون ضابط من القيم والمثل العليا تضبطها، تتحول إلى حيوانية مفترسة أقرب إلى أساليب عيش القطعان.

إنهم يفتقرون إلى أمر أساسى هو إيقاظ القيم، والتمسك بالمثل العليا النابعة من الدين، وليس من تفلسف الأفراد، على أن يكون منهاج يقظة القيم الأخلاقية هو ذلك السلوك الواعى المستند إلى منهاج إسلامى قاعدته وضابطه ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ (٢)

- ٢ -

موقف أعداء الإسلام من الأخلاق

لقد تحللت المجتمعات الأوربية الحديثة من مبادئ الأخلاق، حيث نظرت إليها نظرة مادية نفعية ونسبية، وادعَّوا أن المقاييس الخلقية تختلف من عصر إلى عصر ومن جماعة إلى جماعة تبعًا لظروف المصلحة والمنفعة، فالكذب والغش والقتل وخلف الوعد كلها صفات أخلاقية - فى نظرهم - ما دامت تؤدى إلى تحقيق المنافع المادية، وبذلك ضربوا عرض الحائط بالقيم والفضائل الثابتة والنابعة من الدين مما أدى إلى التسيب الأخلاقى الذى زلزل أسس هذه المجتمعات، لأن الذى يمسك المجتمع من التفكك والانهيار هو المعاملات الأخلاقية بين الناس.

---

(١) سورة القصص الآية ٧٧.

(٢) سورة الشورى الآية ٢٠.

فإذا كانت الأخلاق التى تحكم المجتمع أخلاقًا إنسانية ربانية مثالية ثابتة عاش أفراده فى سلام وأمان، أما إذا كانت الأخلاق التى تحكم المجتمع أخلاقًا مادية متغيرة، فإن المجتمع بكل مستوياته سوف يكون معرضًا للتفكك والانهيار.

ومن هنا تعيش المجتمعات الغربية اليوم حالة من الانحلال الأخلاقى لأن المفكرين هناك دعوا إلى الحرية المطلقة الخالية من القيود الرافضة لقيم الحق والخير والفضيلة باعتبارها مواريث دينية، وما داموا قد هدموا أساس دينهم فإنهم رفضوا معه الأخلاق الدينية.

لقد ساد الخراب الأخلاقى أوربا، وانطلق الشباب هناك فى موجات يائسة يتسكعون فى الطرقات، ضاربين عرض الحائطبكل قيمة أخلاقية تعارف عليها البشر، أو دعت إليها الأديان، وأقبل الشباب على تعاطى سموم المخدرات، وارتكاب أبشع الجرائم الجنسية والعدوانية.

العدوى اللاأخلاقية:

وللأسف الشديد أن عدواهم اللاأخلاقية قد انتقلت إلينا عن طريق أجهزة الإعلام التى راحت تمجد فى السلوك الغربى والقيم الغربية، وقد تأثر المسلمون فعلا بهذا السلوك وهذه القيم فأصبح الدين قضية هامشية فى حياة الناس، وأصبحت الفضيلة من مخلفات العهد البائد.

وكان طبيعيًا بعد ذلك أن يستهين المجتمع بالأخلاق وأن ينظر إليها على أنها شىء من مخلفات العهود البائدة، ليس لها مكان فى دنيا الناس ومكانها الطبيعى هو المتاحف والآثار.

وفى غيبة المنهج الإسلامى يظهر أهل الفساد ويعلنون ما أعدوه لطلاب المتعة الحرام من برامج مسلية، وفنون ممتعة، وفى غيبة المنهج الأخلاقى أيضًا يمكن أن ترى توسعًا كبيرًا فى انتشار الملاهى والمسارح ودور السينما ومعاهد الرقص والموسيقى والتمثيل .. ويمكن فى ظل هذا الغياب أن تطفو على السطح نماذج من الفنانين والفنانات تجندهم وسائل الإعلام حيث تضخم وجودهم. وتتبع أخبار زواجهم وطلاقهم وسكرهم وعربدتهم حتى يكونوا هم النماذج التى يحتذيها الشباب، ويمكن أن تجد فى كتابنا من ينظر إلى الاستقامة فى السلوك على أنها انحراف يجب مقاومته، وقد حدث فعلاً أن تصدت إحدى الصحفيات لبنات المدارس اللاتى تحركت ضمائرهن إحساسًا بالأزمة الأخلاقية الناشئة عن الهزيمة، فرأين ضرورة الاحتشام، وَسَتْر أجسادهن وشعورهن فى الطرقات، فإذا بتلك الصحفية تقلب القضية، وتتهم الفتيات الفاضلات بالتستر وراء الطرحة، وهن على مواعيد مع الشبان [1]، وهكذا تعيش المجتمعات الإنسانية اليوم فى الشرق والغرب أزمة طاحنة بسبب غياب المنهج الأخلاقى الإسلامى، وسيطرة المناهج الأخلاقية الجاهلية.

(١) مقدمة دستور الأخلاق د/ عبد الصبور شاهين (بتصرف) .

ذلك أن الأخلاق ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالعقيدة التى يدين بها الناس، فإذا كانت العقيدة جاهلية تكون الأخلاق بالضرورة كذلك، فلا يكون لها معيار ثابت، ولا تعرف الحق أو العدل.

ولا ريب فى أن معركتنا مع الصهيونية وحلفائها طويلة الأمد، وأن أمضى أسلحة القتال هو أن نتسلح بالأخلاق الفاضلة التى تحرم الخيانة، والتهاون، والتفريط، والغفلة أمام العدو، وتفرض البذل والتضحية بالنفس والمال، وتؤكد على دوام اليقظة فى مواجهة الخطر: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ (١)، فتلكم هى الطريق إلى الإصلاح، طريق الثورة الأخلاقية، لا طريق غيرها (٢).

- ٣ -

تفنيد مزاعم أنصار نسبية الأخلاق

يقول الأستاذ عبد الرحمن حنبكة: فى خطة خبيثة لهدم بنيان الأخلاق، أخذ فريق من الماديين الملحدين ينشرون فكرة شيطانية، يزعمون فيها أن الأخلاق أمور اعتبارية، نسبية لا ثابت لها، فهى تختلف من شعب إلى شعب، ومن أمة إلى أمة، ومن زمان إلى زمان، فبعض الأمور تعتبر منافية لمكارم الأخلاق عند شعب من الشعوب، أو أمة من الأمم، فى حين أنها غير منافية لمكارم الأخلاق عند شعب آخر أو أمة أخرى، وبعض الأمور كانت فى زمان مضى أموراً منافية لمكارم الأخلاق، ثم صارت بعد ذلك أمورًا غير منافية لها ثبات، وهذا يدل - فى زعمهم - على أن الأخلاق مفاهيم اعتبارية تتعارف عليها الأمم والشعوب وليس لها ثبات فى حقيقتها، وليس لها مقياس ثابت، والغرض من ذلك - لدى هؤلاء المضللين - إفساد الأجيال حتى تتمرد على جميع الضوابط الأخلاقية التى تمثل فى الأمم قوى ترابطها وتماسكها، وعناصر رقيها الإنسانى.

قال المغالطون - الذين زعموا أن الأخلاق نسبية اعتبارية وليس لها حقيقة مطلقة ثابتة، وهى قابلة للتغير والتبدل من زمان إلى زمان ومن أمة إلى أمة - : إن مما يدل على ذلك أن بعض الشعوب ترى خروج النساء بدون حجاب عملاً منافيًا للأخلاق بينما ترى شعوب أخرى أن هذا العمل أمر طبيعى لا ينافى ضوابط الأخلاق بحال من الأحوال.

ويدل على ذلك أيضا: أن بعض الأمم تحرم أكل بعض أنواع من اللحوم، وتحرم شرب بعض أنواع من الأشربة، وتعتبر مخالفة ذلك عملاً منافيًا للأخلاق، بينما ترى أمم أخرى أنه

(١) سورة النساء الآية ١٠٢.

(٢) المصدر السابق.

لا شـيء من ذلك محرم أو مناف للأخلاق، ويأتون أيضًا بمثال تعدد الزوجات وإباحته عند أمة وتحريمه عند أمة أخرى .. إلخ.

أليس عجيبًا جدًا أن يُدخِلوا مثل هذه الأمثلة في باب الأخلاق مع أنها في جوهرها من أبواب أخرى غير باب الأخلاق، فهي إما أحكام دينية وإما طقوس وعادات وتقاليد، وإما مفاهيم خاصة تعارف عليها الناس.

فما قيمة مفاهيم الناس حول حقيقة من الحقائق؟

ولنفرض أن بعض الناس استحسنوا رذائل الأخلاق، ولم يجدوا أي رادع من ضمائرهم يردعهم عنها، فمارسوا الظلم بمثل الجرأة التي يمارسون بها العدل، ومارسوا الخيانة بمثل الجرأة التي يمارسون بها الأمانة، ومارسوا قسوة القلب بمثل الجرأة التي يمارسون بها الشفقة والرحمة، ومارسوا الكذب الضار بمثل الجرأة التي يمارسون بها الصدق النافع ...إلخ.

أفيغير ذلك واقع حال الرذائل فيجعلها من قبيل الفضائل؟!.

والجواب بالنفي:

لأن فساد مفاهيم الناس حول حقيقة من حقائق المعرفة لا يغير من واقع حال هذه الحقيقة شيئًا، بل وجميع حقائق المعرفة تتعرض لمشكلة فساد مفاهيم الناس، وفساد تصور الناس لها.

إن موضوع حجاب المرأة وسفورها أمر لا علاقة له بالأخلاق من حيث ذاته، إنما هو في الحدود الشرعية حكم ديني يهدف إلى تحقيق مصالح دينية واجتماعية يقصدها الشارع، فإدخالهم هذا الحكم في موضوع الأخلاق جزء من عناصر المغالطة أو الغلط نفسه إذا أحسنا الظن.

وكذلك موضوع الأطعمة والأشربة، فهو غير ذي علاقة بالأخلاق.

وأحكام الأطعمة والأشربة أحكام دينية تهدف إلى تحقيق مصالح دينية وصحية يقصدها الشارع، ومن ثم فإدخالهم هذه الأحكام في موضوع الأخلاق جزء من عناصر المغالطة أو الغلط نفسه إذا أحسنا الظن.

فمن تبصر بالأصول العامة للأخلاق في المفاهيم الإسلامية، فإنه لا بد أن يظهر له – بجلاء – أن الأخلاق الإسلامية تدخل ضمن المفاهيم الإسلامية الصحيحة غير قابلة للتغيير أو التعديل من شعب إلى شعب ولا من زمان إلى زمان، أما الأمة الإسلامية فهي أمة واحدة، وهي لا تتفق فيما بينها على مفاهيم تخالف المفاهيم التي بيَّنها الإسلام، والتي أوضحها في شرائعه ووصاياه.

وإذا رجعنا إلى مفردات الأخلاق الإسلامية كالصدق والعدل والحياء والحلم والعفو والصفح الجميل.. إلخ وجدنا أن كل واحد منها ذات حقيقة ثابتة ثبوت الجبال الرواسي غير قابلة في المنطق السليم للتحول من حسن إلى قبيح، أو من قبيح إلى حسن.

إن حسنها حسن فى كل زمان ومكان وقبحها قبيح فى كل زمان ومكان، ولا يؤثر على حقيقتها أن تتواضع بعض الأمم على تقبيح الحسن منها أو تحسين القبيح، تأثرًا بالأهواء، أو بالشهوات، أو بالتقاليد العمياء.

إن الإسلام يقرر أن حب الحق وكراهية الباطل فضيلة خلقية، ويقرر أن كراهية الحق وحب الباطل رذيلة خلقية أيضًا، فهل يشك إنسان عاقل سَوِىٌّ فى أن هذه الحقيقة ثابتة غير قابلة للتحول ولا للتغير، وإن تواضع على خلافها جماعة ذات أهواء؟!.. إلخ.

وهكذا سائر الأمثلة الأخلاقية الإسلامية [1].

***

(١) بتصرف شديد من الأخلاق الإسلامية، /د. عبد الرحمن حسن حنبكة.

الفصل الثالث

دور الخلق فى الإسلام

-١-

توضيح:

جملة التعاليم الإسلامية تستهدف تحقيق الخلق العالى، والمثل العليا والأدب الرفيع، وإشاعة الرحمة والبر والإحسان، يقول الرسول ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» [رواه أحمد] من أجل هذا المعنى نجد شرائع الله كلها وسائل لصقل النفس وتهذيبها، وإقامتها على الصراط السوى، فالعقيدة - من إيمان بالله وتقديس له - ، من شأنها أن توقظ حواس الخير، وتربى ملكة المراقبة، وتبعث على طلب معالى الأمور، وتنأى بالإنسان عن محقرات الأمور وسفاسف الأعمال.

ومقياس الإيمان .. الخلق!

يقول الرسول ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم [رواه الترمذى] ، وقد يجهد الإنسان نفسه فى عبادة يستمد منها دوام الثواب بحيث لا ينقطع فى ليل ولا نهار، فيديم صيام النهار فلا يفطر، وقيام الليل فلا يفتر. ولا ريب أن المواظبة على هذا والمثابرة عليه من عمل الصديقين، وليس كل إنسان بقادر عليه ولا مستطيع له .. ولكن الإسلام يفتح باب الخير - لمن شاء عن طريق الخلق، فيقول الرسول ﷺ: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم» [رواه أبو داود] .

وتفاضل الناس واقتسامهم المنازل والدرجات عند الله بحسب الحالة الخلقية التى وصلوا إليها، يقول النبى ﷺ: «أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه» [رواه أبو داود] .

وإنما يثقل ميزان الفرد أو يخف حسب قيمته الخلقية يقول الرسول ﷺ «ما من شىء أثقل فى ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله ليبغض الفاحش البذىء» [رواه أبو داود] .

والخلق الحسن إنما يصدر عن نفس سمحة، وضمير حى، فكما يبدو حسنه فى الأمر الكبير يتجلى كذلك فى الأمر الذى يبدو وكأنه لا شأن له، ولقد رأى النبى ﷺ رجلاً يتقلب فى الجنة فى شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين [رواه مسلم] .

فالإحسان إلى المسيء خلق حسن، والابتسامة في وجه الصديق خلق حسن كذلك يقول الرسول ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق» [رواه مسلم] ، وكان من دعائه ﷺ «اللهم كما حسنت خَلقي فحسن خُلقي» [رواه أحمد] .

ونار الله الموقدة التي هي شديدة الأوار التي وقودها الناس والحجارة، إنما يطفئها نصف تمرة أو كلمة طيبة، يقول الرسول ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمره، فمن لم يجد فبكلمة طيبة» [رواه البخاري] .

-٢-

اهتمام الإسلام بالخلق الحسن

لما كانت ثمرات الخلق القويم للسلوك الديني وللسلوك الشخصي عظيمة جدًا، ولما كانت سلامة النفس من المساوئ الخلقية - الذنوب والمعاصي - أهم من السلوك الظاهر، وأن ما يتحقق بحسن الخلق من رضوان الله تعالى أكثر مما يتحقق بالاستكثار من نوافل العبادات، والأذكار اللسانية.

لما كان كل ذلك وجدنا النصوص الإسلامية توجه الاهتمام العظيم والعناية الكبرى لقيمة حسن الخلق في الإسلام، وتذكر الخلق الحسن بتمجيد كبير واهتمام عظيم، فمنها النصوص التالية:

أولا: روى أبو داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «أثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن» .

فصدق العبادة لله تعالى عمل أخلاقي يثقل في الميزان، لأنه وفاء بحق الله تعالى على عبيده، وحسن المعاملة مع الناس وفاء بحقوق الناس المادية والأدبية، فهي بهذا الاعتبار من الأعمال الأخلاقية الكريمة تثقل في الميزان.

ومن المستبعد جدًا أن يكون الإنسان ذا خلق كريم مع الناس محبًا للحق، معطاء، متواضعًا، صبورًا عليهم رحيمًا بهم، ودودًا لهم، متسامح النفس معهم، ثم لا يكون ذا خلق كريم مع ربه، فلا يؤمن بحق ربوبيته وألوهيته، ولا يذعن له بذلك، ولا يؤدي واجب العبادة له، كما أنه ليس من المعقول أن يكون ذا خلق كريم مع الناس وهو يأكل حقوقهم ويعتدي عليهم، فهذا مناف لما توجبه فضائل الأخلاق، لو كان حقًا ذا خلق كريم.

ثانيا: روى مسلم عن النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» .

البر: هو جماع أفعال الخير، وقد عرفه الرسول ﷺ بأنه حسن الخلق، فهذا يدل على أن حسن الخلق يشتمل على جماع أفعال الخير والاتساع فيها يقرب إلى الله تعالى ويرضيه سبحانه، أما كون الإثم ما حاك في نفس الإنسان وكره أن يطلع عليه الناس، ففيه إشارة إلى الضمير الأخلاقي الذي فطر الله الناس عليه، وهذا الضمير يحس بالفضيلة الخلقية كما يحس بالإثم،

وحينما يحس بالإثم يلامس نفسه شعور خاص به، وحينما يحدث هذا الشعور فى النفس يدرك الإنسان أن ما أحس به من شأنه أن يحس به كل إنسان آخر إذا اطلع عليه.

ثالثا: روى مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم».

الألد: هو شديد الخصومة، الخصم: هو كثير الخصومة المولع بها حتى تصير الخصومة عادة له، وظاهر أن الخصم الألد سيئ الخلق من درجة شديدة القبح، وقد أبان الرسول ﷺ أنه أبغض الرجال إلى الله تعالى.

رابعا: روى الترمذى بإسناد صحيح عن أبى هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: «تقوى الله وحسن الخلق».

وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال: «الفم والفرج».

فتقوى الله وحسن الخلق من أحب الأعمال إلى الله فهما أكثر ما يدخل الناس الجنة، وفى كون الفم والفرج أكثر ما يدخل الناس النار إشارة إلى عناصر متصلة بسوء الخلق، إذ جعلهما الرسول ﷺ مقابل التقوى وحسن الخلق.

خامسًا: روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا».

وروى الترمذى عن جابر أن الرسول ﷺ قال: «إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى يوم القيامة، الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون.

قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟

قال: «المتكبرون».

«الثرثارون»: هم الذين يكثرون الكلام ويتكلفونه.

المتشدقون: هم الذين يتطاولون على الناس بكلامهم، ويتكلمون بملء أفواههم تعاظمًا وتعاليًا على خلق الله».

سادسًا: روى الترمذى بإسناد حسن عن أبى ذر وعن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت» وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

ففى هذا الحديث إشارة إلى قواعد السلوك الكبرى، التى من التزمها فقد أخذ سبيله لارتقاء مراتب المجد والكمال الإنسانى، وهذه القواعد ترشد إلى المنهج الخلقى العام الشامل لجانبى علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الإنسان بالناس.

أما علاقة الإنسان بربه فهى تقوى الله فى السر والعلانية، وذلك لأن الواجب الأخلاقى يفرض على الإنسان طاعة من خلقه فسواه فعدله، فأنعم عليه بالنعم التى لا يستطيع إحصاءها، ويفرض عليه أيضًا حمده وشكره وحسن عبادته وكل هذه الواجبات يجمعها تقوى الله فى السر والعلن.

أما عن علاقة الإنسان بالناس فهى فى قوله ﷺ: «وخالق الناس بخلق حسن» أى ينبغى على الإنسان أن يعامل الناس بالخلق الحسن فى كل الأحوال.

أما قوله ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها» ففيه إرشاد إلى منهج الإصلاح والتقويم، فمن سقط بارتكابه السيئة - سواء فى حق الله أم فى حق عباده - فى حالة من حالات الضعف الإنسانى فعليه أن يتبع هذه السيئة بحسنة تمحها كى تعود النفس المؤمنة إلى نقائها وطهارتها بعد أن أصابها ما أصابها من أدناس السيئات، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ (١).

ولما كان حسن الخلق يحتل هذه المنزلة العظيمة فى الإسلام كان الرسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا، ولم يذكر خلق حسن محمود إلا كان للنبى ﷺ منه الحظ الأوفر، روى البخارى ومسلم عن أنس قال كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا.

- ٣ -

حسن الخلق يكفر الذنوب

إذا كان المسلم يبلغ درجة الصائم بحسن خلقه كما قال ﷺ فى الحديث الذى رواه أبو داود: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم» فإن السماحة وبشاشة الوجه والصفح عن الإساءة كل ذلك مكفر للذنوب.

١ - قال ﷺ: «غفر الله لرجل كان قبلكم كان سهلًا إذا باع، سهلا إذا اشترى، سهلًا إذا اقتضى» [رواه الترمذى].

٢ - وقال ﷺ: «تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: عملت من الخير شيئا؟ قال: لا.

قالوا: تذكر.

قال: كنت أداين الناس فآمر فتيانى أن ينظروا المعسر ويتجاوزوا عن الموسر، قال: قال الله: تجاوزوا عنه» [رواه الشيخان]. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢).

٣ - ما ورد فى فضل من سقى حيوانًا رفقًا به ما أخرجه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً

(١) سورة هود الآية ١١٤.

(٢) سورة النور الآية ٢٢.

فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان قد بلغ بى، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه حتى رقى، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له، فقالوا يا رسول الله: إن لنا فى البهائم أجراً؟ فقال: «فى كل كبد رطبة أجر» (١).

٤ - ما جاء فى أن حسن الخلق - وهو عمله الصالح - يكون أمانًا لصاحبه من فتنة القبر ما رواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ ذكرأن الملائكة تسأل العبد المؤمن فى قبره فيحسن الإجابة، وعند ذاك ينادى مناد فى السماء أن صدق عبدى فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له فى قبره مد بصره» قال: ويأتيه - وفى رواية: ويمثل له - رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذى يسرك - أبشر برضوان الله وجنات فيها نعيم مقيم - هذا يومك الذى كنت توعد، فيقول من أنت فوجهك الوجه الذى يجىء بالخير؟

فيقول: أنا عملك الصالح - فوالله ما علمتك إلا كنت سريعا فى طاعة الله بطيئا فى معصية الله فجزاك الله خيرًا - ثم يفتح له باب من الجنة، وباب من النار، فيقال» هذا منزلك لو عصيت الله، أبدلك الله به هذا، فإذا رأى ما فى الجنة قال: رب عجل قيام الساعة كى أرجع إلى أهلى ومالى.

- ٤ -

إعداد المسلم خلقيًا

المقصود بإعداد المسلم خلقيًا أن يكون المسلم جياش العواطف كبير القلب، ينبسط للخير، ويفرح به، ويحرص عليه، وينقبض عن الشر ويضيق به، ويفر منه، وهذا هو جوهر الإيمان.

ويمكن تلخيص وجهة نظر الإسلام من ناحية تربية الإنسان تربية خلقية فيما يأتى:

١ - أن الإنسان خُلِقَ مزوداً بقوى واستعدادات يمكن أن توجه إلى الخير، كما يمكن أن توجه إلى الشر، فليست إرادة الإنسان مقصورة على الخير المحض ولا على الشر المحض. يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(٢) ويقول سبحانه وتعالى ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾(٣).

(١) أى فى إرواء كل حى ثواب، وفى الحديث الحث على الإحسان إلى الحيوان.
(٢) سورة الإنسان الآية ٣.
(٣) سورة البلد الآية ١٠.

٢ – كل إنسان مسئول عن تهذيب نفسه وإصلاحها، ويقول سبحانه: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾ (١).

٣ – تزكيـة النفـس وإصلاحها هو سـبيل الفلاح، كما أن إهمالها هو السـبيل إلى الخيبة والخسـران، يقول الله سبحانه: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾ (٢).

٤ – وإصلاحها يتمثل فى التخلص من الهوى وكبت الشهوة، والارتفاع عن المادة، والسمو عن النقائص الخلقية، فإن الهوى داع إلى الشر والفساد، وصاد عن الحق والخير، وصارف عن الهوى والرشاد، يقول الله سبحانه مخاطبًا داود عليه السلام: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (٣).

٥ – والتخلـص من الهوى يحتاج إلى مجاهدة شـاقة، وصبر ومصابرة، فإن طريق الوصول إلى الكمال ليس مفروشًـا بالورود ولا بالرياحين، يقول الرسول ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات» [البخارى ومسلم].

وفطام النفس عن شهواتها يحتاج إلى مراقبة دائمة، وخوف من الله ويقظة من الضمير. يقول الله سبحانه: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١ ﴾ (٤)، وفى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» [رواه مسلم].

والعبـادات هـى التى تجـدد الإيمان بالله، وتعصم الإنسـان من الانـزلاق الخلقى، يقول الله تعـالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٥).

٦ – والقدوة الطيبة والأسـوة الحسـنة لهما شأن كبير، وأثر بعيد فى نفس الإنسان وفى نجاحه فى الحياة إذ هى علم هاد يشير إلى المثل الحى، والفضيلة المجسمة، وعرض النماذج البشـرية الصالحة، التى يراد محاكاتها والاقتداء بها. وقد أمر الله نبيه أن يقتدى برسل الله الذين تقدموه فقال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ (٦).

(١) سورة القيامة الآية ١٤.
(٢) سورة العصر الآية ١ – ٣.
(٣) سورة ص الآية ٢٦.
(٤) سورة النازعات الآية ٤٠ – ٤١.
(٥) سورة العنكبوت الآية ٤٥.
(٦) سورة الأنعام الآية ٩٠.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (١).

وجعل الله للمسلمين مثلا أعلى هو رسول الله الذى جمع ما تفرق فى غيره من الصدق والوفاء والشجاعة والكرم والإيثار وسائر خلال مكارم الأخلاق فقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٢).

٧ - واختيار الأصدقاء الذين يعينون على الخير، ويرشدون إليه مما يهتم له الإسلام، ويحرص عليه أشد الحرص، والإسلام يدعو إلى مصادقة الأخيار ومجانبة الأشرار: ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣).

وأوصى علقمة ابنه فقال: يا بنى إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صاحبته زانك، وإن قعدت بك مئونة عانك.

اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن رأى سيئة سترها. اصحب من إذا سألته أعطاك وإن سكت عنه ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدق قولك، وإن تنازعتما آثرك.

٨ - والبيئة هى التى تصوغ الإنسان فى قالبها بطابعها، فكل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، وقد عمل الإنسان - جاهدًا - على أن تكون البيئة - التى ينشأ فيها الفرد - نقية تتحقق فيها الفضائل، ويحترم فيها المعروف، وتتناول فيها الآداب على أنها أوضاع مقررة وعرف عام (٤).

- ٥ -

الأخلاق والتقدم الحضارى

إذا نظرنا إلى النواحى الحضارية وجدنا هناك مبادئ شديدة الصلة بالجانب الأخلاقى، نأخذ مثلًا الجانب المهم والفعال فى تقدم الحضارة وهو العلم، فنجد الإسلام يهتم بالعلم ويدعو الناس إلى الجد فى طلبه، ويرفع شأن العلماء ويحثهم على نشر العلم: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (٥).

وبين الرسول ﷺ أن الأثر العلمى الذى يتركه الإنسان فى حياته سوف ينال ثواب جهده

(١) سورة الأحقاف الآية ٣٥.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١.

(٣) سورة الزخرف الآية ٦٧.

(٤) بتصرف من كتاب دعوة الإسلام / السيد سابق. الفتح للإعلام العربى. القاهرة.

(٥) سورة الزمر الآية ٩.

وعملـه بعد مماته فقال فى الحديث الذى رواه مسـلم: «إذا مات ابـن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

كما بين أن الإنسـان الذى يعمل بعمله وهديه سـينال أجرًا مثل أجر العاملين به فقال ﷺ «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا». [رواه مسلم].

هذا ... وقد وردت نصوص كثيرة فى الإسـلام تأمر الآبـاء بتعليم أبنائهم وبناتهم وأيضا تعليم خدمهم - وسنشـير إليها فى حينها - إن شـاء الله وذلك لينتشـر العلم والفضيلة فى المجتمع الإسـلامى، فالعلم وسـيلة لتحقيق الخير وإزالة الشـر، وذلك وظيفة الأخلاق فى الإسلام، ولهذا شجع الإسلام طلاب العلم ورفع من شأنهم ودعا إلى البحث عن العلم والتغرب من أجلـه، قال الله تعـالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[1]، كما أمر باحترام طلاب العلم وإكرامهم وخاصة الذين اغتربوا من أجل العلم فقال الرسـول ﷺ: «من سلك طريقًا يبتغى فيه علما سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع» [رواه أبو داود].

ولا شك أن الإنسان إذا رأى من الناس تقديرهم لجهوده العلمية وإذا علم أن له ثوابًا عند الله لآثاره العلمية يناله بعد موته فإن ذلك يشجعه على أعمال علمية عظيمة، وهذا يؤدى بدوره إلى ازدهار العلم وتقدمه، ومن ثم تكون النتيجة تقدم الحضارة لأن العلم أساس الحضارة وروح أخلاقية العلم تؤدى إلى الخير.

-٦-

الأخلاق والتقدم الاقتصادى

كما نجد فى الإسلام توجيهات أخلاقية تؤدى إلى التقدم الاقتصادى. ومما هو معلوم أن التقدم الاقتصـادى يتم عن ثلاث طرق: الزراعة والصناعة ثم التجارة، ونجد الإسـلام يهتم بكل هذا. فنراه مثلًا يدعو إلى الزراعة ويعتبر كل نفع يأتى منه للإنسان أو الحيوان فهو صدقة للزارع.

فيقـول رسـول ﷺ: «لا يغرس المسـلم غرسًا ولا يـزرع زرعا فيأكل منه إنسـان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة» [رواه مسلم].

أما فيما يتعلق بالتجارة فنجد القرآن الكريم يحث على أن تكون التجارة عن التراضى لا عن الغصب والاستغلال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[2].

(١) سورة التوبة الآية ١٢٢.

(٢) سورة النساء الآية ٢٩.

لأن التجارة المبنية على الاستغلال والغصب لا تؤدى إلى رفاهية الحياة الاجتماعية، بل تؤدى إلى التناحر والتطاحن وإلى الحروب التى تأكل الأخضر واليابس، والتى لا تزال البلاد تعانى من ويلاتها.

وقد نهى الرسول عليه الصلاة والسلام الإنسان أن يكون عالة على غيره، وأمره بالاكتساب بعمل يده فقال: «لأن يأخذ أحدكم أحبله ثم يأتى الجبل، فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه» [رواه البخارى].

وعن المقدام بن معد يكرب ﷺ عن النبى ﷺ قال: «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» [رواه البخارى].

ونجد الإسلام - أيضا - يدعو إلى الاختراع الذى يأتى منه الخير والنفع للناس فى أى ميدان من ميادين الحياة، يقول الرسول ﷺ: «من سن فى الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شىء» [رواه مسلم].

- ٧ -

التعمير والإصلاح

وفيما يتعلق بالتعمير والعمران فقد دعا الإسلام إلى إحياء الأرض الميتة وشق الآبار والأنهار، والبحث عن المعادن فى بطون الأرض، وبناء العمارات للمساكين والفقراء والمحتاجين، وبناء المساجد وتعميرها، وجعل لمن يكافح فى هذا الميدان مكافأة. وقد ورد فى ذلك كله نصوص كثيرة منها:

- ما ورد فى إحياء الأرض الميتة قول الرسول ﷺ: «من أحيا أرضًا ليست لأحد فهو أحق» [رواه البخارى]

وقوله ﷺ: «من أحيا أرضا ميتة فهى له وليس لعرق ظالم حق» [رواه أبو داود].

- وفيما يتعلق ببناء المساجد قال ﷺ: «من بنى مسجدًا يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله فى الجنة» [رواه مسلم].

وقال أيضا: «من بنى لله مسجداً صغيرًا كان أو كبيرًا بنى الله له بيتا فى الجنة» [رواه البخارى].

- كما شجع الإسلام على إقامة المشروعات مثل بناء المساكن وإصلاح الأراضى وحفر الآبار ثم وقفها للفقراء والمساكين فقال الرسول ﷺ: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علمًا علمه ونشره، وولدًا صالحًا تركه، أو مصحفًا ورثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد

موته [رواه ابن ماجة] ، وهكذا نجد التوجيهات الأخلاقية فى الإسلام كلها بناءة تأمر بالتعمير والإصلاح كما تأمر بمكارم الأخلاق.

الآداب الاجتماعية من الأخلاق فى الإسلام

لقد عنى الإسلام بالتشريع الاجتماعى الذى يحدد العلاقة السوية بين البشر، وحرصًا على تماسك المجتمع وترابطه فإن الإسلام ينشىء أفراده على التعاون والتكافل فى شتى المجالات، يقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ (١)، وسوف نرى أثناء مسيرتنا فى هذا الكتاب، وأثناء عرض أنواع الواجبات الاجتماعية المختلفة: أن الجوانب الاجتماعيــة هى جوانب تعبدية كالصلاة والصيام والــزكاة والحج وقراءة القرآن والذكر وقيام الليل، بل بعضها يفوق فى ثوابه كثيرًا من أنواع التعبد المعتادة.

وتصور معى أن إلقاء السلام عبادة، وعيادة المريض عبادة، وتبسمك فى وجه أخيك صدقة، وصلــة الرحم عبادة، وبر الوالديــن عبادة، وإغاثة الملهوف عبــادة، وقضاء الحوائج عبادة، ومساعدة المحتاج عبادة، ولو أن تحمل عنه شيئًا ثقيلًا يثقل عليه حمله.

والخلاصة: أن كل حركة لصالح إنسان أو حيوان - هى مأذون فيها شرعًا - إذا فعلها لوجه الله فهى عبادة، وهى فى الوقت نفسة من صميم الأخلاق فى الإسلام.

وعند معاملة الناس دعا بصفة خاصة إلى بســط الوجه عند المقابلة، ونهى عن تصعير الخد فقال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ (٢)، وفى الحديث الذى رواه مســلم عن أبى ذر أن النبى ﷺ قــال: «لا تحقرن من المعروف شــيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طليــق» ودعا إلى عدم التناجى بــين الاثنين دون الثالث فقال ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه» [رواه مسلم].

كما دعا إلى احترام كل إنســان بما يليق به من التقدير حســب دينــه وعلمه ومنزلته بين النــاس، فقال ﷺ: «انزلوا الناس منازلهم. [رواه أبو داود] وكان ينصح دائمًا بتحســين الهندام وتجميل الظاهر وتطهير الثياب، وكما دعا الإســلام إلى تحســين الظاهر دعا أيضا إلى تجميل الباطن وتحسينه فدعا إلى حسن الظن بالخالق كما دعا إلى حسن الظن بالمخلوق أو الناس، كما نرى الإسلام يأمرنا بالأدب فى المأكل والمشرب والملبس ومعاشرة الناس.

من هذا كله يتبين لنا: أن الإســلام لا يدع أية ناحية من نواحى الخلق الحســن إلا ويدعو

(١) سورة المائدة الآية ٢.

(٢) سورة لقمان الآية ١٨.

إليهـا بقوة ويحث عليها فى حماسـة لينعم الجميـع بالطمأنينة والاسـتقرار فى ظل عدالة الإسلام وتعاليمه الخلقية.

والناس جميعًا فى أخلاق الإسلام سواسية كأسنان المشط، وأيضا المساواة أساس عام من أسس البناء الأخلاقى فى الإسلام.

فقـد دعا الإسـلام إلى جميع الفضائل الماديـة والمعنوية، ونهى عن جميـع الرذائل المادية والمعنوية أيضا، فقد دعا إلى المودة والتعاون والرحمة والعفة والإحسـان والأمانة والاسـتقامة والإصلاح بـين الناس والإخاء والعفو والصبر والشـجاعة والتضامن وآداب الحديث وحسـن الضيافة والطهر والسلام، وقد نهى الإسلام عن أضداد هذه الفضائل.

الفصل الرابع

أهم الأسس الأخلاقية في نظر الإسلام

-١-

الأساس الاعتقادى

(العقيدة والأخلاق فى الإسلام)

هذا الأساس فى غاية الأهمية فى الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام، ذلك أنه يعتبر السند الذى يعتمد عليه فى إقامة النظام الخلقى، فبدون هذا الأساس تفقد الأخلاق قدسيتها وعظيم تأثيرها فى الإنسان، ولا يمكن أن تطبق الأخلاق تطبيقًا عمليًا دقيقًا فى السر والعلن إلا إذا استقر هذا الأساس فى قلوب البشر وآمنوا به إيمانًا صادقًا.

وهذا يعنى الإيمان بوجود الله الذى خلق الإنسان ويعلم ما يدور فى خلجات نفسه من النيات الخيرة والشريرة، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ...﴾ (١)

كذلك من تَتِمَّةِ الإيمان: «الإيمان بوجود الحياة بعد الموت وهذه الحياة إما نعيم وإما جحيم فالأولى يكافأ بها من اتبع الحق وفعل الخير واجتنب الشر فى هذه الدنيا، والثانية يجازى بها من اتبع الباطل وفعل الشرور والآثام، فالنعيم لمن استقام فى هذه الحياة والجحيم لمن انحرف عنها.

وهذه وتلك بعد حساب دقيق يقوم به الخلاق العليم، يحاسب فيه كل إنسان بما عمل من خير أو شر: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ (٢).

وعن أهمية العقيدة بالنسبة للأخلاق يقول الشيخ محمد الغزالى:

ولقد وضح صاحب الرسالة أن الإيمان القوى يلد الخلق القوى حتمًا، وأن انهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان أو فقدانه بحسب تفاقم الشر أو تفاهته.

• فالرجل الذى يؤذى جيرانه ويرميهم بالسوء يحكم الدين عليه حكمًا قاسيًا فيقول الرسول الكريم: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟

---

(١) سورة ق الآية ١٦.

(٢) سورة الزلزلة الآية ٧ – ٨.

قال: «الذى لا يأمن جاره بوائقه» [رواه البخارى].

● والإنسان معوج السلوك الذى يقترف الرذائل غير مبال بأحد، يقول رسول الإسلام فى وصفه: «الحياء والإيمان قرناء جميعًا، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر» [رواه الحاكم].

● والمتدين الذى يباشر بعض العبادات، ويبقى بعدها بادى الشر، كالح الوجه، قريب العدوان، كيف يحسب إنسانًا تقيًا؟

إن الإيمان والصلاح والأخلاق عناصر متلازمة متماسكة لا يستطيع أحد تمزيق عراها.

لقد سأل النبى ﷺ أصحابه يومًا: «أتدرون من المفلس»؟

قالوا: إن المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

فقال: «إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح فى النار» [رواه مسلم].

ذلك هو المفلس: إنه كتاجر يملك فى محله بضاعة بألف، وعليه ديون قدرها ألفان، هل يعد هذا المسكين غنيًا؟

إن الرذائل إذا نمت فى النفس، وفشا ضررها، وتفاقم خطرها، انسلخ المرء - من القيم - كما ينسلخ العريان من ثيابه، وأصبح ادعاؤه الإيمان زوراً وبهتانًا، فما قيمة دين بلا خلق، وما معنى الإفساد فى الأرض مع الانتساب لله[1].

أهمية الأساس الاعتقادى:

الأساس الاعتقادى هو الأساس الذى يقوم عليه بنيان الأخلاق فى الإسلام، بل هو أساس للحياة كلها، إذ لا معنى للحياة - فى الحقيقة - دون وجود هذا الأساس ودون الاعتماد عليه والذى يقرأ كتب الوجوديين وأمثالهم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر يرى كم يعانون من الاضطراب النفسى والقلق فى أعماق قلوبهم، وخاصة كتاباتهم فى التفكير الأخلاقى وهم يحاولون أن يبرروا ذلك كله بإسناده إلى الطبيعة، وذلك جهل واضح وخروج على القيم والأخلاق، إذ إن فى طبيعة الحياة الإنسانية جانبًا لا يملؤه إلا الإيمان وهو غير موجود عندهم.

فوجود هذا الفراغ فى حياة هؤلاء وأمثالهم هو السبب فى إحساسهم بالنقض والاضطراب فى الحياة وذلك الإحساس هو الذى يدفعهم فى بعض الظروف المحرجة إلى التخلص من الحياة بالانتحار.

---

(١) بتصرف، من كتاب خلق المسلم/ محمد الغزالى. دار الكتب الحديثة القاهرة.

ومما يؤيد صدق هذا القول أن أولئك يقضون على حياتهم بالانتحار لا يفعلون ذلك لضيق معيشتهم، بل إننا نجد منهم من هم أغنى الناس لا ينقصهم أدنى شيء من متع الحياة، وإنما ينقصهم فى الحقيقة الطمأنينة الداخلية التى يكونها الإيمان أو العقيدة السليمة [1].

ومن مميزات تلك العقيدة أنها تضفى على القوانين الأخلاقية قداسة تسمو بها على القوانين الوضعية التى هى من صنع البشر.

- ٢ -

الأساس الواقعى والعلمى

١ - أساس الاعتدال بين الواقعية والمثالية:

إذا كان الإسلام قد دعا إلى المثالية والسمو الروحى وذم الذين أخلدوا إلى الأرض وشهواتها، فإن دعوته إلى المثالية لم تكن متطرفة كبعض الدعوات الروحية الأخرى التى كانت تدعو الإنسان إلى محاربة الطبيعة وعدم الركون لها. بل كان اتجاه الإسلام نحو الطبيعة فى إقامة نظامه الخلقى اتجاهًا معتدلاً، وحقيقة هذا الاتجاه المعتدل تظهر إذا وضحنا الموقفين اللذين وقفهما الإسلام من الطبيعة.

ففى الموقف الأول: دعا إلى الاستعلاء على الطبيعة وعدم الاستسلام لها لأن الإسلام طلب من الإنسان أن يكون سيدًا على الطبيعة وسيدًا على نفسه فى الحياة، ولا يكون الإنسان سيدًا على الطبيعة إلا بتسخيرها وتكييف مادتها فى صورة تؤدى إلى عمران الأرض والسمو بالحياة وفقًا للمنزلة العالية التى أراد الله للإنسان أن يرقى إليها فى هذه الأرض بعد أن أنشأه فيها ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [2].

ولا يستطيع الإنسان أن يكون سيدًا على نفسه إلا بضبط ميوله ورغباته وتوجيهها وفقًا للمثل العليا التى رسمها الله أمام الإنسان والتى تدعو إلى عدم اتباع الهوى والشهوات، وتدعو إلى الله بالتسامى الروحى.

وفى الموقف الثانى: دعا إلى مهادنة الطبيعة والواقع وعدم الاصطدام معها لأن الحياة مع مخالفة الطبيعة - بهذه الصورة - لا يمكن أن تستمر، بل تبوء بالفشل.

٢ - مراعاة قوانين الطبيعة والحياة:

ومراعاة الطبيعة والواقع تتم عن طريق اتخاذ قواعد السلوك وفقًا للقوانين الأساسية للحياة

---

(١) بتصرف شديد - من كتاب علم الأخلاق الإسلامية - د/ مقداد بالجن.

(٢) سورة هود الآية ٦١.

البشرية، وأهم هذه القوانين:

- قانون المحافظة على الحياة.
- قانون تكاثر النوع البشرى.

ويدخل فى القانون الأول (المحافظة على الحياة) كل سلوك من شأنه أن يحافظ على الحياة وينميها يعتبر سلوكًا أخلاقيًا، وكل سلوك من شأنه أن يعرقل مسيرة الحياة - بصورة من الصور - يعد سلوكًا غير أخلاقى ومن هنا حرم - أخلاقيا - القتل واستغلال الناس للمصالح الشخصية وإعاقة أعمال الناس والتهديدات وإخافة الناس، وحرم التحاسد والتدابر والتباغض لأن كل ذلك يعرقل مسيرة الحياة.

ومن ثم أوجب الإسلام احترام حقوق الناس فى دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وحض على الأعمال التى تنظم الحياة وتحفظها مثل السعى لخير الناس وقضاء حوائجهم وبث المحبة والمودة والسرور والبهجة فى نفوسهم، وقد ذكرنا فيما سبق نصوصًا تشير إلى أغلب هذه الجوانب.

وفيما يتعلق بالقانون الثانى (قانون تكاثر النوع البشرى) يعتبر السلوك الذى يؤدى إلى إبقاء النوع وتحسينه سلوكًا أخلاقيًا راقيًا. ومن هنا فإن الله شرع الزواج وكره الرهبنة يقول الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ (١)، وذلك لأنهم حملوا أنفسهم على المشقات فى الامتناع عن المطعم والمشرب والنكاح والتعلق بالكهوف والصوامع.

وكما نهى الرسول ﷺ عن الرهبانية فإنه دعا إلى حسن اختيار الزوجة من السلالة السليمة عقلًا وجسمًا وذلك لتحسين النسل فقال ﷺ: «تخيروا لنطفكم فأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم» [رواه الحاكم].

والحقيقة الواضحة للناس جميعًا أن سوء خلق الوالدين يؤثر فى الأبناء ليس عن طريق التقليد فحسب، بل العلم الحديث يثبت أنه يؤثر أيضًا عن طريق الخلايا الملقحة.

ثم إن الإسلام حرم كل سلوك من شأنه أن يعوق استمرار التناسل لأنه يعد منعًا لاستمرار النوع البشرى ولهذا منع الإجهاض وعده جريمة سواء كان من قبل الأم أم من قبل غيرها.

ومن واجبنا - هنا - أن نعرض لمشكلة اجتماعية عامة وهامة ألا وهى مشكلة تحديد النسل، ونبين حكم الإسلام فيها من الوجهة الأخلاقية.

تحديد النسل

سبق أن بينا أن غريزة التناسل قانون من قوانين دوام حياة النوع واستمراره. وقلنا إن الإسلام يحرم كل سلوك يضاد هذا القانون ويحول دون استمرار التناسل. أما الحد من كثرة

(١) سورة الحديد الآية ٢٧.

التناسل بطريقة من الطرق دون الإسقاط أو الإجهاض – وهو ما يسمى بتنظيم النسل – فهو أمر ورد فيه نصوص متعددة بين الإباحة والحظر حسب اختلاف الظروف والأحوال.

وإذا بحثنا عن دوافعه وأهدافه وجدنا أنها تكاد تنحصر فى أحد الأمور الآتية:

الأمر الأول: التخلص من الضائقة الاقتصادية أو الخشية من ضيق الرزق.

الأمر الثانى: تجنب الضرر الذى يلحق بالأولاد أو بأحد الأبوين.

الأمر الثالث: المحافظة على جمال المرأة وحسن التمتع بها.

أما عن الأمر الأول الذى هو الدافع الأساسى الذى تتذرع به تلك الدعوات على مستوى المجتمعات البشرية، إذ يقولون: إن تجاوز نسبة المواليد نسبة الإنتاج الصناعى والغذائى أمر يدعو إلى الخطر فى المستقبل وهو أساس المشكلة الاقتصادية التى تعانى منها المجتمعات الفقيرة المتخلفة من الناحية الاقتصادية.

ولتفنيد هذه الفرية يمكن القول بأنه لو كان المسلمون اليوم متعاونين ما كانت حاجة إلى التحديد بعد أن ظهرت ثروات هائلة فى بعض الأقطار، يفيض خيرها على سكانها، ويحتاج معها إلى خبرات الآخرين، ويوزع الفائض على الأقطار الفقيرة، فحيث تكثر الموارد فلا حاجة إلى التحديد، وحيث تقل فلا مانع من النظر فيه.

ويجب ألا نضيع بين تزمت من يقولون: الرزق على الله مضمون، وبين من يقولون: إن التحديد دعوة غربية وخدعة استعمارية.

بعد هذه المقدمة نقول:

إن كلمة تحديد النسل يراد بها وضع حد لكثرة التناسل ويعبر عنها أحيانًا بتنظيم النسل ومراقبته، وأحيانًا تنظيم الأسرة.

وتحديد النسل موضوع دعا إليه عامل اقتصادى، ولكن يجب أن نعرف أنه لابد من مراعاة المبادئ الدينية والخلقية عند البحث فيه، والذين بحثوه فى المجتمع الإسلامى التمسوا له أدلة من وقائع حدثت أيام الرسول ﷺ لم يكن المعنى الاقتصادى هو المسيطر عليها تمامًا، بل كان المعنى الدينى واضحًا فيها كل الوضوح.

وإذا كانت الدعوات بتحديد النسل تتزايد ليل نهار على أساس أنه يهدف إلى قلة السكان، فإنه من الملاحظ – دوليًا – أن قلة السكان ليست وسيلة الرفاهية من وجهة النظر العلمية، ذلك أننا نجد هناك دولة مثل اليابان بالرغم من التضخم السكانى فيها، وبالرغم من قلة الموارد الطبيعية والمساحة الأرضية بالنسبة لسكانها، بالرغم من هذا كله تتوفر فيها الإمكانيات الاقتصادية لأنها تعمل بالأساليب العلمية الحديثة فى مختلف المجالات.

وعلى العكس من ذلك تمامًا نجد هناك دولًا كالسودان – مثلًا – بالرغم من توفر الإمكانيات الطبيعية وقلة سكانها يسود فيها التخلف الاقتصادى والفقر والتأخر لأنها لا تتخذ من العلم وسيلة للتقدم الاقتصادى[1].

ويقول الدكتور عبد الغفار عزيز: «ولا يمكن لعاقل أبدًا أن يقول: إن كثرة النسل فى بلد كمصر ستؤدى حتمًا إلى أضرار وأخطار كما يقول دعاة التحديد الذين اعتمدوا على نظرية قديمة أثبت العلماء المنصفون من الغربيين أنفسهم عدم صحتها، والتى لو صحت لكانت الصين فى حساب الشعوب البائدة، فلا يزال فى مصر كثير من الموارد لم تستنفد، ولو تم استغلالها لساير نمو السكان وزيادة، فيكفى أن تعلم أن مصر تصرف فى اليوم الواحد أكثر من مليون جنيه فى السجاير وحدها، ولن يموت المدخنون لو امتنعوا عن التدخين» [2].

أما إسرائيل فإن أكبر مشاكلها فى قلة عدد سكانها وتخشى من زيادة عدد السكان العرب المقيمين حولها فى فلسطين المحتلة بالذات، وخوفها من أن تؤثر هذه الزيادة فى المستقبل على استعادة فلسطين وطرد اليهود منها، وفى نفس الوقت فإن إسرائيل تدعو يهود العالم للهجرة إلى فلسطين المحتلة، وتنفق عشرات الملايين لجلب اليهود إليها.

هذا رأى العلم والواقع فى هذه النقطة ولننظر إلى رأى الإسلام فنقول:

موقف الإسلام من تحديد النسل

وإذا أردنا أن نعرف حكم الشرع فى هذا الموضوع فليكن اعتمادنا على النصوص الشرعية وآراء علماء الإسلام بصرف النظر عن اهتمام الغرب به، فالإمام الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ، طرق هذا الموضوع وتحدث فيه بعقلية المتكلم الفقيه المتصوف، وتحدث عن العامل الاقتصادى فى الحد من النسل بطريق العزل قبل أن يتحدث عنه علماء هذا العصر.

وقد اختلفت أقوال الفقهاء فى حكم تحديد النسل بناء على اختلافهم فى حكم العزل، وملخص أقوالهم فى ذلك أربعة:

١ – **قول يجيز العزل مطلقًا**، روى ذلك عن عشرة من الصحابة منهم: على وسعد بن أبى وقاص، وزيد بن ثابت، وجابر بن عبد الله، والحسن بن على وابن مسعود، واستدلوا بهذه الأحاديث:

---

(١) كتاب علم الأخلاق نقلًا عن حركة تحديد النسل لأبى الأعلى المودودى.

(٢) بتصرف من كتاب تحديد النسل جريمة فى حق الدين والوطن – د. عبد الغفار عزيز. دار الحقيقة للإعلام الدولى القاهرة.

● حديث البخارى ومسلم عن جابر: كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ والقرآن ينزل وزاد مسلم فى رواية: فبلغه ذلك فلم ينهنا. فإقرار الرسول لعمل الصحابة وعدم نهيهم عنه دليل على جوازه.

● ورد عن جابر – أيضا – أن رجلًا أتى النبى ﷺ فقال له: إن لى جارية وهى خادمتنا وسانيتنا فى النخل – التى تسقى نخلنا – وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل، فقال: «أعزل عنها إن شئت، فإنه سيأتيها ما قدر لها» [رواه مسلم وأبو داود].

وفى رواية مسلم عن أبى سعيد: أن هذا الرجل أتى النبى ﷺ فقال: إن الجارية قد حبلت، فقال له: «قد اخبرتك أنه سيأتيها ما قدر لها».

والواضح من الحديث أن السبب الحامل على العزل هو الإبقاء على صحة الأمة وعلى نشاطها لتستطيع الخدمة، كما هو الظاهر، وليس الباعث عليه خوف النسل والفرار من الإنفاق عليه.

وقد يكون الباعث عليه كراهية أن يكون ولده من جارية تقوم بالخدمة، أو تجميدها بعدم بيعها مثلًا لأنها ستصير أم ولده.

● حديث مسلم عن أبى سعيد قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة بنى المصطلق فسبينا كرائم العرب، فطالت علينا العزبة ورغبتنا فى الفداء، فأردنا أن نستمتع ونعزل، فقلنا: نفعل ورسول الله بين أظهرنا لا نسأله؟

فسألنا رسول الله فقال: «لا عليكم ألا تفعلوا، ما كتب الله خلق نسمة هى كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون»، وفى رواية عنه أن النبى ﷺ سئل عن العزل فقال: «ما من كل الماء يكون الولد، وإذا أراد الله خلق شىء لم يمنعه شىء.

● حديث مسلم – أيضا – أن رجلًا جاء إلى النبى ﷺ فقال: إنى أعزل عن امرأتى، فقال له: «لم تفعل ذلك؟».

فقال له الرجل: أشفق على ولدها أو على أولادها.

فقال رسول الله ﷺ: «لو كان ضارًا لضر فارس والروم».

قالوا: إن النبى ﷺ لم يحرم على الرجل العزل، ولكن بين أن عدم العزل لا يضر الولد فالعزل مسكوت عنه على الأقل «أو إقرار له، غير أنه ينبغى أن يلاحظ أن الباعث على العزل ليس الفرار من النسل وتحمل مؤنتهم، بل هو باعث صحى.

٢ – قول يحرم العزل مطلقًا، وبه قال جماعة من أهل العلم أشهرهم ابن حزم واستدلوا بحديث مسلم: «أن أناسًا سألوا رسول الله ﷺ عن العزل: فقال رسول الله ﷺ: «ذلك الوأد الخفى».

وأجـاب المجيزون بـأن هذا ليس وأدًا حقيقيًا، يقول ابن القيم: وقد اتفق عمر وعلى رضى الله عنهما على أنها لا تكون موءودة إلا إذا مر عليها التارات السـبع فروى القاضى أبو يعلى وغيره قال: جلس عمر وعلى والزبير وسـعد رضى الله عنهم وتذاكروا العزل، فقالوا لا بأس به، فقال رجل إنهم يزعمون أنها الموءودة الصغرى.

فقال علىّ ﷺ: لا تكون موءودة حتى تمر عليها التارات السبع، حتى تكون من سلالة من طـين، ثم تكون نطفة، ثم تكون علقـة، ثم تكون مضغة، ثم تكون عظامًا، ثم تكون لحمًا، ثم تكون خلقًا آخر، فقال عمر ﷺ: صدقت أطال الله بقاءك، وعلى رضى الله عنه يشـير إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (١).

٣ – وهنـاك قـول ثالث يجيز العزل إذا أذنت فيه الزوجـة، ولعل هذا مبنى على أن فيه إيـذاء للزوجة، فهى تريـد أن تتمتع كما يتمتع الرجل، ولكن العزل يحدث نفورًا وقلقًا عند الزوجة، ويسبب لها أحيانًا مرضًا نفسيًا خطيرًا، كما أن المرأة تشارك الرجل فى حق الولد فلا يعزل عنها إلا بإذنها، وهذا هو رأى الأحناف، وقد اسـتدلوا عليه بحديث رواه أحمد وابن ماجه عن عمر بن الخطاب قال نهى رسول الله ﷺ أن يعزل عن الحرة إلا بإذنها.

وهذا الحديث علق عليه ابن تيمية بقوله: وليس إسناده بجيد، لكن المتأخرين من الأحناف أفتوا بجواز العزل بدون إذنها إذا خيف على الولد السوء لفساد الزمن.

٤ – وهنـاك قـول يجيز العزل فى المملوكة دون الحرة خوفًـا على الولد من الرق إن كانت زوجته أمة لغيره، لكن بشرط إذن سيدها، وخوفًا على ضياع ملكه لها إن صارت أم ولد بالولادة فإنه يمتنع عليه بيعها، وتعتق عليه بعد موته، ذلك أنه من المقرر فى الشـريعة الإسـلامية أن الأمة إذا ولدت من سيدها فإنها تصبح حرة، وليس لسيدها التصرف فيها بالبيع ونحوه، ومن ثم فهو يعزل عنها كى لا تحمل، رغبة منه فى دوام الاستفادة منها كأمة.

- ٣ -

شمول الأخلاق

(ارتباط معظم أحكام الشريعة الإسلامية بالأخلاق)

الأخلاق الإسـلامية تبدو ركيزة أساسـية فى كل نواحى الحياة الإنسـانية، فهى تفرض نفسها على جميع وجوه النشاط البشرى، سواء ما اتصل منها بعلاقة الإنسان مع نفسه، أم مع

(١) سورة المؤمنون الآية ١٢.

ربه، أم مع بنى جنسه فى الفرد والمجتمع، بل يتخطى ذلك كله إلى علاقة الإنسان بالكون، وهذا يعنى شمول الأخلاق للحياة الإنسانية كلها، ولذلك نلاحظ الجانب الأخلاقى فى كل تعليماته وتشريعاته وشعائره ونظمه، فالإسلام لم يهمل أى نوع من المطالب الأساسية للإنسان لكنه أدخلها جميعها فى حسابه، ثم أقام قواعد التوفيق الأخلاقى على هذا الأساس.

وهذه المطالب تنقسم بصفة عامة إلى قسمين أساسيين هما:

١- المطالب الروحية. ٢- المطالب الحسية.

١- فالمطالب الروحية كما قررها الإسلام هى أداء العبادات المختلفة من الصلاة والصوم والحج والزكاة وأن يذكر الإنسان دائمًا أن الله خالقه ورازقه ويستمد منه العون، ويتوكل عليه فى كل شىء لأن الأمر بيده وأنه على كل شىء قدير، وأن يتذكر أن هذه الحياة مؤقتة ستتحول فى النهاية - إن أحسن الإنسان عمله - إلى حياة أبدية ملؤها السعادة والهناء.

ولهذه الحياة الروحية دور كبير فى سعادة الإنسان، ذلك أن الإنسان عندما يحيا هذه الحياة يشعر بالاطمئنان والراحة فى أعماق قلبه لأنه يحس دائمًا فى قرارة نفسه بأن الله راض عنه وأنه سيكلؤه بعنايته ويحفظه برعايته، وهو بعد ذلك يتطلع إلى حياة صافية من الأحزان والآلام: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (١).

٢- المطالب الحسية الأساسية للإنسان مثل المأكل والمشرب والملبس والمسكن والنكاح وما إلى ذلك فهى ضرورية أيضًا لدوام الحياة أولا، وللشعور بالسعادة ثانيا، ولهذا فقد أباح الإسلام كل ما يحتاج إليه الإنسان بالضرورة، وحرم كل شىء يضر بالصحة، وقد سمى الأول بالطيب والثانى بالخبيث: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ (٢).

- وكيف يحرم الطيبات وهو الذى خلقها رزقا للعباد: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ (٣).

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ (٤).

(١) سورة القمر الآية ٥٥.
(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٧.
(٣) سورة ق الآية ٩ - ١١.
(٤) سورة الأنعام الآية ١٤١.

وليس لمجـرد الرزق بل للمتعـة والبهجة قال تعـالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ (١).

وأباح النكاح للحاجة البيولوجية وللمتعة النفسية ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢).

وروى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء).

وروى أحمد فى مسنده أن رسول الله ﷺ قال: «من سعادة المرء: الجار الصالح، والمركب الهنئ والمسكن الواسع».

ومن النعم التى خلقها الله لنا الأنعام قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾ (٣).

كل هذه النعم أعدها الله للإنسان لكن عليه أن يأخذ الطيبات ويترك الخبائث، وأن يعلم أن الحياة الدنيا إنما هى مجرد وسيلة للوصول إلى الحياة الآخرة لذلك يقول الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (٤).

وهكذا نجد الإسلام يقرر للإنسان حياة مادية حسنة حيث يعمل على تحقيق مطالبه، وهذا مما لا شك فيه يمثل جزءًا من سعادة الإنسان فى هذه الحياة، وصلة تحقيق الحاجات بالأخلاق أن حرمان الإنسان نفسه من حقه ظلم كظلم غيره، والظلم مناف للأخلاق(٥).

(١) سورة الأعراف الآية ٣١ -٣٢.
(٢) سورة الروم الآية ٢١.
(٣) سورة النحل الآية ٥ – ٨.
(٤) سورة القصص الآية ٧٧.
(٥) انظر علم الأخلاق الإسلامية، د/ مقداد يالجن.

- ٤ -

الغاية من التزام قواعد الأخلاق
(تحقيق السعادة الأبدية فى دار الخلد)

وأخيرًا يرى الإسلام أنه لكى تتحقق السعادة للإنسان، لابد أن نضيف إلى ما سبق تحديد الغاية للإنسان فى هذه الحياة، وهذه الغاية هى الفوز برضا الله تعالى، والدخول فى دار الخلد والنعيم المقيم، دار السعادة الأبدية فى الحياة الآخرة فهذه هى السعادة الكاملة ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (١)

إن ربط الإنسان مصيره بالسعادة له دور كبير فى إحساسه بالسعادة فى مختلف الظروف مهما تكبد فى سبيلها من عناء ومشقة لأن السعادة الأخروية أمل الإنسان دائمًا إن عاجلًا أو آجلا، وهذا الأمل هو الذى يبعث فى نفس الإنسان الاطمئنان والرضا، لذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ (٢).

● ذلك أن الله سبحانه قد جبل عباده على الميل إلى الأفراح واللذات، والنفور من الغموم والمؤلمات، ووعد من عصى هواه وأطاع مولاه بما أعده فى الجنان من المثوبة والرضوان ترغيبًا فى الطاعات ليتحملوا مشاقها ومكارهها.

- ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ (٣).

- ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (٤)، فبالعمل الصالح يستحق أهل الجنة الجنة.

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (٥).

(١) سورة هود الآية ١٠٨.
(٢) سورة الفجر الآية ٢٧ - ٣٠.
(٣) سورة النازعات ٤٠ - ٤١.
(٤) سورة النساء الآية ١٢٤.
(٥) سورة البقرة الآية ٢٥.

● والجنة هى دار النعيم فى الآخرة، أعدها الله تعالى للمؤمنين الموحدين من عباده الذين آمنوا بـه وبملائكته وكتبه ورسـله واليوم الآخر، وجعلها نزلاً ومقامًـا دائمًا لعباده المخلصين المتقين الذين يخافون ربهم ويخشونه، والمجاهدين فى سبيله بأموالهم وأنفسهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ (١).

وبما أن الجنة من المغيبات فقد وجب على المؤمنين الإيمان بها والعمل من أجلها والسـعى لدخولهـا، جزاء لمـا فعلوه فى الدنيا وقدمـوه من أعمال صالحة بنية طيبـة ابتغاء وجه الله وابتغاء رضوانه.

- يقـول بعض العلمـاء - إن رحمة الله فى هذا اليوم - يوم القيامة - تسـبق غضبه حتى إنه عز و جل يحاسبهم برحمته، تلك التى لولاها لما دخل الجنة أحد، مهما كان عمله لقول الرسـول ﷺ «سددوا وقاربوا، وأبشروا، وأعلموا أنه لن يدخل أحدكم الجنة عمله، ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله بمغفرة ورحمة» [رواه الشيخان].

● والسعادة فى الجنة تختلف كلية عن سعادة الدنيا، والنعيم فيها مطلق الحدود، حيث تنعـم فيها تلك الوجوه النيرة بنعم لم يخطر لهـم على بال ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (٢).

● وفـى الجنة حور عين كأمثـال اللؤلؤ المكنون، وغـرف وقصور وأنهار شـتى فصل القرآن الحديث عنها، وفصلت السنة النبوية الوصف فيها، وكلها أعدت لعباد الله المتقين.

ويمكن أن نستخلص من هذا كله:

أن هدف الأخلاق فى الإسـلام هو تحقيق السـعادة سواء فى الدنيا أم فى الآخرة لكنه عنى بسعادة الآخرة أكثر من الدنيا، لأنها السعادة الكاملة التى لابد أن تتحقق للمؤمنين كما وعد الله عز وجل.

كما أن الإسـلام اهتم بتحقيق السعادة بجميع جوانبها الروحى والعقلى والنفسى والحسى معًا، وكلما كان هناك اتساق بين هذه الجوانب تحققت السعادة، وعلى الإنسان أن يكون هدفه من الإيمان والعمل الصالح والسير على المنهج الإسلامى هو رضا الله عز وجل.

وسوف تأتى السعادة الأبدية بعد ذلك عن طريق هذا الرضا، لذلك يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ (٣).

---

(١) سورة التوبة الآية ١١١.

(٢) سورة السجدة الآية ١٧

(٣) سورة الرعد الآية ٢٢.

الفصل الخامس

المسئولية الأخلاقية

- ١ -

توضيح:

إن الأخلاق الإسلامية قائمة على المسئولية التى تلزم بالعمل الخلقى، وتعنى المسئولية تحمل الشخص نتيجة التزاماته وقراراته واختياراته العملية من الناحية الإيجابية والسلبية أمام الله فى الدرجة الأولى وأمام ضميره فى الدرجة الثانية، وأمام المجتمع فى الدرجة الثالثة [١].

وتوضيح ذلك:

أن الله خلق الإنسان ووضع له النظام الأخلاقى، وهو الذى يعلم الظاهر والباطن ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ [٢] وأنه يسجل كل شىء ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [٣].

وجعل الإسلام سلطة الجماعة ملزمة، وبناء على ذلك اعتبر المجتمع مسئولا عن انحراف الأفراد، لأن فساد بعض الأفراد قد يؤدى إلى فساد المجتمع كله يوما ما، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [٤].

ولهذا قرر مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، واعتبر القيام بذلك من عزائم الأمور ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [٥].

إن إعطاء سلطة الإلزام للجماعة من الأهمية بمكان، ذلك أن من الناس من يكون وازعهم الإيمانى ضعيفاً فلا يخافون من الله خوفهم من الناس فلو أنهم تركوا وشأنهم لبثوا الفساد فى المجتمع.

---

(١) التربية الأخلاقية الإسلامية – د/ مقداد يالجن ص ٣٣١.

(٢) سورة الأعلى الآية ٧.

(٣) سورة يس الآية١٢.

(٤) سورة الأنفال الآية ٢٥.

(٥) سورة لقمان الآية ١٧.

-٢-

شمولية المسئولية

والمسئولية هى محاسبة الإنسان على كل ما يصدر منه من قول أو عمل، وهى تختلف باختلاف العقول والحالات، فالطفل فى مهده غير مسئول، فإذا جاوز المهد واستقل باليسير من التفكير اعتبر مميزًا.

وهذه المسئولية تتعاظم منذ عهد التمييز حتى يبلغ العقل غايته ثم لا تفارقه مادام حيا، وهى تعظم وتضؤل بحسب ما يضطلع به من حقوق وواجبات.

وينتظم فى المسئولية جميع الناس على تباين مناصبهم ومراتبهم ودرجاتهم وطبقاتهم وإن اختلفت بينهم ضيقًا واتساعًا.

فالوزير مسئول عن وزارته، والطبيب مسئول عن مرضاه، والقائد مسئول عن جيشه، والمعلم مسئول عن تلاميذه، والأب مسئول عن بنيه، وكل ذى عمل مسئول عن عمله، وهذا هو الطريق الذى شرعه الرسول ﷺ «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» [رواه البخارى]، والمرء مسئول عن جسمه بإراحته إذا تعب وترويحه إذا مل، وتقويته إذا ضعف، ونحو ذلك برياضة النفس وتهذيبها وتكميلها وتنحيها من الذلل والوصول بها إلى الكمال.

وعن إخوانه بأن ينصفهم من نفسه ويبذل لهم من قلبه وده ورحمته مالا زيادة منه لمستزيد.

وعن وطنه بأن يجعل فكره وجهده وماله وروحه ودمه رهن صيانته وعلو شأنه.

وعن بنيه بتدبير ما يصلحهم ويسرهم ويهذب نفوسهم ويقوى أجسامهم ويهيئ لهم أفضل الطرق إلى حياة طيبة ومستقبل بسام.

وعن خدمه بأن يبذل لهم كفايتهم من أجر وغذاء، وألا يجشمهم الصعب ولا يكلفهم ما لا يطيقون.

وأعظم الناس خطرًا، وأجلهم شأنا أعظمهم مسئولية، فمصرِّفو زمام الدولة من شيوخ ونواب ووزراء ورؤساء مسئولون عن حياة الأمة وسلامتها ورخائها وعزتها وشرفها.

وتتفاوت المسئولية بتفاوت العمل وعظم الأمانة، فسائق القطار وربان الباخرة كلاهما مسئول عن أرواح ركابه، ومهندس البيت وبانيه كلاهما مسئول عن حياة سكانه، ومسئولية هؤلاء وأمثالهم من الأمناء على الأرواح أشد وأفدح ممن سواهم.

ومن أجل ذلك شرعت الشرائع، وسنت القوانين، وفرضت العقوبات للأوزار بحسب أخطارها على المجتمع: فما كان منها شديد الفتك بالجماعة كالقتل والزنا والسرقة كانت مسئوليته فادحة وعقوبته صارمة.

وكما أن الإنسان مسئول عن ماله فيم أنفقه، وعن ذكائه فيم نهج به، فكذلك هو مسئول عما يملكه من ماشية وأنعام، فلا يكلفها عنتًا، ولا يحملها شططًا، ولا يمنعها قوتًا، ولا يؤلمها حين ذبحها.

ففى الحديث النبوى الشريف «إن الله كتب الإحسان على كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته) [رواه مسلم].

ولتعلم أن للحيوان نفسًا وحسًا كحسك وأن الله سائلك فمشدد عليك المسألة عما استرعاك وائتمنك عليه.

ولا بد - إذن - من الإشارة إلى أن المسئولية شاملة كاملة إذ إن كل إنسان مسئول مسئولية كاملة عن كافة أعماله وتصرفاته - كما بينا سلفًا فى الأمثلة العديدة - يقول الله تعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[1].

ويقول الرسول ﷺ: (كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته) [رواه الشيخان].

- ٣ -

خصائص الإلزام الأخلاقى فى الإسلام

يمتاز النظام الأخلاقى فى الإسلام بخصائص هامة لا توجد بمثل هذا الوضع فى الفلسفات الأخلاقية الأخرى وهى:

١ - الالتزام بقدر الاستطاعة:

إن الإسلام قد راعى استطاعة الإنسان فى إلزامه بالقوانين الأخلاقية ولهذا لم يكلفه فوق طاقته ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[2]، ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[3]، وهذا المبدأ كما تقتضيه الأخلاق السليمة تقتضيه كذلك العدالة الإلهية إذ لا يمكن أن تكون الأخلاق صالحة للتطبيق إلا بهذا الشرط.

وليس من العدالة كذلك تكليف المرء ما لا يطيق بل هو ظلم، والله سبحانه وتعالى قد وصف بالعدالة ونفى عن نفسه الظلم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ

(١) سورة الإسراء الآية ٣٦.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٦.
(٣) سورة البقرة الآية ١٨٥.

يَظْلِمُونَ ﴾[1]، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[2].

٢ - سهولة التطبيق:

ليست الأخلاق الإسلامية متوافقة مع قدرات الناس واستطاعتهم فحسب، بل إنها أسهل مما يطيقونه ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[3] ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾[4].

نرى من هاتين الآيتين أن الله تعالى لم يعفنا - فقط - مما لا طاقة لنا به، بل أعفانا أيضا مما نطيقه بشق الأنفس لأنه تعالى لم يضع نظامه لنا ليحرجنا ويضعنا فى عسر وضيق من الحياة. بل أراد هدايتنا وتيسير السبل أمامنا للوصول إلى حياة سعيدة ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[5] ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[6].

وكان الله قادرًا أن يكلفنا فوق طاقتنا ولكنه لم يفعل ذلك رحمة بخلقه لأنه لم ينزل رسالاته إلا رحمة للعالمين ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[7].

وهنا تظهر حكمة الله البالغة فى وضعه هذا النظام المحكم بهذه الصورة، إذ إنه لو كلفنا بما نطيقه بشق الأنفس لما أمكن مسايرته إلى الأبد.

٣ - مراعاة الحالات الضرورية (الرخص):

تظهر هذه المراعاة فى تخفيف الإسلام عن المكلفين بعض التكاليف أو إعفائهم منها فى بعض الظروف والحالات المحرجة الطارئة: فنرى مثلًا أنه خفف عن المسافر - فى الصلاة والصوم - فسمح له بتأخير الصيام فى شهر الصوم وبأداء الصلاة قصرًا وعلى الراحلة، ونرى كذلك أنه أعفى العجزة والضعفاء من الجهاد ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾[8].

(١) سورة يونس الآية ٤٤.
(٢) سورة الأنعام الآية ١١٥.
(٣) سورة البقرة الآية ١٨٤
(٤) سورة البقرة الآية ٢٨٦.
(٥) سورة الحج الآية ٧٨.
(٦) سورة البقرة الآية ١٨٥.
(٧) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.
(٨) سورة الفتح الآية ١٧.

ونرى أيضًا أنه أباح - أحيانًا - استبدال الالتزام بالتزام آخر عند الضرورة فإذا لم يجد الإنسان ماء يتطهر به فإنه يتيمم بالتراب صعيدًا طيبًا حتى إنه أباح له بعض المحرمات - عند الضرورة - فللجائع مثلًا إذا خاف على نفسه الموت من الجوع أن يأكل من مال الغير جبرًا إذا امتنع عن إطعامه بالرضا، وله أن يقاتل المستسقى إذا امتنع عن سقايته، بل أكثر من هذا وذاك فقد سمح للمسلم أن ينطق بالكفر إذا أكره عليه فلا يضره ذلك طالما قلبه مطمئن بالإيمان ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ (١).

لأن الإسلام لا يهتم بالظاهر اهتمامه بالباطن ولهذا قال الرسول ﷺ: (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) [رواه مسلم].

كما أباح الإسلام الكذب في بعض الحالات الضرورية إذا كان ذلك يؤدى إلى الخير العام أو ينقذ نفس الإنسان البرىء من الإهدار فقد روى الرسول ﷺ أنه قال: (ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى خيرًا أو يقول خيرًا) [رواه مسلم]، وروى مسلم أيضا عن أم كلثوم بنت عقبة أنها قالت ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: تعنى الحرب والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها.

والكذب في حالة الإصلاح بين الناس قاصر على الكلمات الطيبة التى يسندها إلى أحد الطرفين المتنازعين أو كليهما، وكذلك الحال بالنسبة للزوجين فإن الشارع رخص في الكذب بينهما من أجل دوام رابطة الزوجية واستمرارها، وأيضا في الحرب إذا كان الكذب يؤدى إلى إنقاذ الجيش أو أحد أفراده ولا يمكن بغير ذلك، ومع هذا فمثل هذا الكذب رخصة وليست عزيمة فقد حثنا الرسول ﷺ على الأخذ بالرخصة فقال: (صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته) [رواه مسلم].

وقال أيضا: (إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته) [رواه البيهقى].

-٤-

شروط المسئولية الخلقية

وضع علماء الأخلاق شروطًا للفعل الذى تترتب عليه المسئولية الأخلاقية ونوجز الكلام عنها فيما يلى:

١ - أن يكون صاحب العمل أهلا لتحمل المسئولية، وقد حدد الشارع هذه (الأهلية) بالتمييز والإدراك - أى العقل والبلوغ.

(١) سورة النحل الآية ١٠٦.

٢ – أن يكـون العمـل إراديا أى بمحض اختياره وحريته، وبناء على ذلك فالإنسـان غير مسـئول عن الأعمال التى تصدر منه دون أن يكون لإرادته تسـبب فيها كالرعشات، وحركة النائم المستغرق، وكتصرفات المجنون والمكره.

٣ – النية والقصد فلا يعد العمل خيرًا أو شرًا إلا بنية الفاعل بقطع النظر عن النتيجة التى يمكن أن تترتب عليه.

٤ – القانون الأخلاقى والعلم به: فمن الظاهر فى مفاهيم الشريعة الإسلامية أنه لا مسئولية مع الجهالة التى يعذر بها صاحبها، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (١).

٥ – أن يكون العمل مقدورًا عليه أى فى استطاعة الإنسان فعله أو تركه، فلا مسئولية عن العمل مع العجز عن الفعل سواء كان عجزًا عن الفعل أم عجزًا عن الترك، وبداهة فإن العقول تقضى بأن الاستطاعة شرط لترتب المسئولية قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (٢).

- ٥ -

الجزاء والأخلاق

الجزاء هو رد فعل القانون الخلقى على موقف الأشخاص الخاضعين لهذا القانون والملتزمين به، وللجزاء ثلاثة ميادين هى:

١ – الجزاء الأخلاقى. ٢ – الجزاء الشرعى. ٣ – الجزاء الإلهى.

وفيما يلى بيان موجز لهذه الأنواع:

١ - (الجزاء الأخلاقى)

يباشـر الإنسان عمله طبقًا لقواعد يعرفها ويحس بها، وبعد ذلك تحدث فى النفس أصداء معبرة عن الرضا فى حالة النجاح وعن الألم فى حالة الفشـل، هذا يتعلق بالإنسـان السـوى المسـتقيم الذى يعرف أن هناك قواعد للسـلوك ويقيم لها وزنًا ويعمل لها حسـابًا، أما ذلك الإنسـان المعوج الذى لا يعرف قواعد السـلوك ولا يقيم لها وزنًا ولا حسابًا ولا يؤنبه ضميره [لا يندم] عند اقتراف السيئات فإنه يكون فاقدا لمعنى الخير والشر تماما.

فما معنى هذا بالنسبة للجزاء الخلقى؟

يحلـل ذلك الدكتـور دراز متوصلًا إلى أن الندم لا يعتبر جزاء لمـا يقترفه الفرد وهو ليس بعقوبـة أو مكافأة للقانون الأخلاقى، ويـرى كذلك أن المتعة والألم اللذين نحس بهما بعد أن نفعل خيرًا أو شـرًا هما رد فعل لضميرنا على ذاته أكثر من أن يكون رد فعل للقانون علينا،

(١) سورة الإسراء الآية ١٥.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٦.

فهما تعبيران طبيعيان يدلان على توافق فى الذات مع المثل الأعلى أو على تضاد الذات معه.

وهذا ما يدل عليه نص الحديث النبوى الشريف الذى يقول فيه الرسول ﷺ (من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن) [رواه الحاكم] ، فالحديث لم ينظر إلى حالات النفس هذه على أنها ثواب يقتضيه سلوكنا وإنما رأى فيه ترجمة وتحديدًا للإيمان الخلقى (١).

وعلى هذا فالتوبة هى الجزاء الخلقى .. إنها واجب يفرضه الشرع على أثر تقصير فى أداء الواجب وهناك الكثير من الآيات والأحاديث الدالة على ذلك، فإن التوبة فى ذاتها ندم على ما سلف، وإقلاع عنه فى الحال وعزم على عدم العودة فى المستقبل.

إن التوبة لا يمكن أن تؤدى وظيفتها الإصلاحية فى الأخلاق الإسلامية إذا اقتصرت على مجرد الأسف على ما اقترفناه من شر، والعزم على عدم المعاودة ولكنها موقف أكثر تعقيدًا، موقف ينظر للماضى والحاضر والمستقبل نظرة جديدة جادة، وقد أوضح القرآن أهمية التوبة الصادقة، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (٢).

فليس المهم التوبة فقط، إنما المهم الإصلاح، إصلاح ما نقص أو فسد أو أفسده الإنسان، وهذا الإصلاح يتمثل فى أمور عديدة منها:

(أ) إما فى عمل ناقص ويجب أن يعاد بطريقة مناسبة آجلا أو عاجلًا.

(ب) وإما فى إصلاح شر بتعويض آثاره من سلبيات وذلك بأفعال صالحة مناقضة للفعل الأول: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ (٣).

(جـ) وإما فى خطأ واجب إزالته، وفى هذا المجال يميز الرسول ﷺ بين أخطاء تنتهك فى حق الله تعالى وهو ما يطلق عليه حق الله، وبين أخطاء ترتكب فى حق العباد وهو ما يسمى حق العباد.

والأخطاء التى ترتكب فى حق الله تعالى يغفرها الله تعالى إلا الشرك.

أما ما يتعلق بحق العباد فمهما فعلنا من أفعال طيبة، ومهما دعونا الله أن يغفر لنا فإننا نظل عاجزين على أن نصل إلى التوبة الكاملة، إذ يجب أن نحصل على إبراء صريح ومحدد من الذين أسأنا إليهم، والأحاديث فى هذا المجال وافرة رويت فى الصحيحين وفى المسانيد.

٢ - (الجزاء الشرعى) :

المراد بالجزاء الشرعى تلك العقوبات التى أقرتها الشريعة الإسلامية لأولئك الذين يتعدون حدود الله فيظلمون بذلك أنفسهم أولًا، وغيرهم ثانيًا.

---

(١) دستور الأخلاق فى القرآن – د. محمد عبد الله دراز ص ٢٤٨، بتصرف.

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٠.

(٣) سورة هود الآية ١١٤.

فـإذا كان الجزاء الأخلاقـي يتصل بتركيب النفـس من حيث تزكيتهـا وإصلاحها، فإن الجزاء الشـرعي جزاء تأديبي أو عقابي لكل من تسـول له نفسـه بتجاوز قانون الحياة في المجتمع الإسلامي.

إن الترغيـب والترهيـب وإن كان لهما أثر بالغ في الردع عن مخالفة القواعد الشـرعية لما يحدثانه من خشية وخوف ورجاء وطمع، ويؤازرهما في ذلك ما يسمى بـ (الوازع الأخلاقي) المتمثل في محاسـبة النفس ومجاهدتها وما ينجم عن ذلك من نهي النفس عن الهوى وابتعاد الإنسان عن ارتكاب الخطايا والآثام إلا أن ذلك كله قد لا يكفي – أحيانا – لكف بعض الأشقاء عن الظلم والاعتداء واقتراف الجرائم، ومن ثم كان الوازع المتمثل في الحدود الشـرعية، هامًا وضروريًا في هذا المجال، نظرًا لما لهذا الوازع من خطورة اجتماعية.

وينبغي التنبيه إلى أن هذا الجزاء الشرعي يرتبط بارتكاب الأمور المنهي عنها شرعا، تلك الأمور التي تعد في حد ذاتها من المفاسد الأخلاقية، ومن هنا تأتي أهمية الجزاءات الشرعية في دفع المفاسد الأخلاقية.

أهداف الجزاءات الشرعية:

- الردع عن ارتكاب الجرائم أو تكرار وقوعها، وبالتالي تربية هؤلاء المجرمين وإصلاحهم.
- جعـل الذيـن يرتكبون هـذه المفاسـد أو الجرائم عبرة وعظـة لغيرهم وزجـرًا للغير عن التشبه بهم.
- القضاء على الثأر وإحلال الوئام والسلام في المجتمع والمحافظة على أمنه وسلامته. وبالنظر في نظام المجازاة في التشريع الإسلامي يمكن أن نميز فيه بين نوعين من العقوبات هما:

(أ) الحدود: وهي الجزاءات التي حددها الشرع بدقة وصرامة، وهي من حقوق الله تعالى، ولا تسـقط بالعفو ولا بالصلح وهي تتعلق بالجرائم التالية: الزنا، السـرقة القذف، شـرب الخمـر، قطع الطريق، الـردة، البغي، والصرامة في هذه العقوبـات لا تتيح مجالاً أمام أي تنازل أو حل وسط، وفي الأحاديث ما يوضح ذلك جيدًا فلا شفاعة لأحد في حد من حدود الله ولا تنازل عن توقيع هذا الحد.

يوضح هذا الحديث الذي رواه الشـيخان: أن قريشًـا أهمهم شـأن المـرأة المخزومية التي سـرقت فقالوا: من يكلم فيها رسـول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسـامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله تعالى؟» ثم قال: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سـرق فيهم الشـريف تركوه وإذا سـرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد ﷺ سرقت لقطعت يدها» .

وهـذه الأخطاء لا يجوز العفو فيها إلا إذا كانت فى المجال الخاص فمتى وصلت الجريمة إلى السلطة أصبح تطبيق الحد أمرًا جازمًا لا رجعة فيه.

(ب) التعزيرات: وهى عقوبات تأديبية يفرضها القاضى على معصية لا حد فيها ويتعلق بالتعزيـر حقان: حق الله وحق العباد، وما كان من حـق العباد فيه غالبًا فيجوز قبول العفو فيه، وما كان من حق الله فيه أغلب فإن التعزير واجب ولو عفا المتضرر.

وهنـا تتنوع العقوبة الموقعة على المجرم من تأنيب إلى تعنيف أمام الناس إلى السـجن إلى الجلد، ومن حق القاضى أن يتغاضى عن بعض الأخطاء القليلة حين تقع من إنسان ذى خلق.

وقد روى عن النبى ﷺ: (أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم إلا الحدود) [رواه البخارى] .

٣ - (الجزاء الإلهى) :

إذا كان النوعان السـابقان (الجزاء الأخلاقى والجزاء الشـرعى) ينتميان إلى مجال الواقع الدنيوى، فإن الجزاء الإلهى له طبيعته وامتداداته.

ويمكن القول بأن القرآن الكريم حدد الجزاء الإلهى فى ناحيتين هما:

- الجزاء الإلهى فى الدنيا. - الجزاء الإلهى فى الآخرة.

- الجزاء الإلهى فى العاجلة (أى فى الدنيا)

وهذا الجزاء فى الدنيا له عدة جوانب:

الجانب المادى: تأييد الله لجماعة المؤمنين والهداية والارشاد.

وبيانها كما يلى:

(أ) الجانب المادى:

يعنـى أن من يقـوم بفعل الأوامر ويلتزم بقواعد السـلوك الأخلاقى يحصل على نصيب من ثوابهـا فى الدنيا وكذلك مـن يتجنب فعل الفضائل ويأتى مضادها من المسـاوئ فإن الله يصب سخطه عليه وفى القرآن أمثلة تؤكد ذلك:

- ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (١).

- وفى سورة سـبأ وبعد عرض قصتهم يقول الله عز وجل: ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢).

(١) سورة النحل الآية ١١٢.

(٢) سورة سبأ الآية ١٦ - ١٧.

وهكذا فى قصة صاحب الجنتين، وفى قصص الأمم الأوائل الذين كذبوا الرسل كل ذلك يدلنا على أن المتمردين على السلوك الأخلاقى يجازيهم الله على مساويهم فى الدنيا قبل الآخرة.

أما حالات الإفساد العام أو انتشار الفساد الأخلاقى العام فإن الله سبحانه وتعالى يقابلها بتدمير الشعب وإهلاكه، وينجى الله المتقين الصالحين.

وفى المقابل فإن هناك حالات يحتوى فيها الجزاء على حالات مادية معجلة لهم فى الدنيا قبل النعيم الأبدى فى الآخرة، وذلك لما لهم من منزلة عالية فى الفضل والصلاح والتقى، وقد قال القرآن عنهم:

- ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾(١).
- ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾(٢).
- ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾(٣).

(ب) تأييد الله لجماعة المؤمنين:

وهذا التأييد والنصر من الله سبحانه وتعالى لجماعة المؤمنين الملتزمين بالقانون الخلقى، يشمل النصر والمساعدة والتثبيت.

أما خصوم المؤمنين فهم مسوقون إلى الهزيمة والعذاب وموعودون بالذل ومشمولون بالخزى وفى نص واحد يبين الحق - تبارك وتعالى - هذا الجزاء الدنيوى فى قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾(٤).

أما إذا ركن الناس إلى الأخلاق المنحلة والفوضى والعصيان فإن الجزاء عبر عنه القرآن بقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾(٥).

(جـ) الهداية والإرشاد:

إن الأمر لا يقتصر على ما سبق من جزاءات مادية، أو جزاءات جماعية، فالجزاء الإلهى فى الدنيا يمتد إلى هداية المؤمنين، وهداية قلوبهم، ويبدد ظلماتهم، ويوصلهم إلى النور،

(١) سورة الطلاق الآية ٢ - ٣.
(٢) سورة النحل الآية ٤١.
(٣) سورة الزمر الآية ١٠.
(٤) سورة النور الآية ٥٥.
(٥) سورة محمد الآية ٣٨.

ويرشدهم إلى الطرق المستقيمة، ويمنحهم القوة على تمييز الحق من الباطل والخير من الشر، ويصلح نواياهم وينزل فى قلوبهم الطمأنينة والسكينة.

أما الظالمون فيحدث لهم عكس ما يحدث للمؤمنين المتمسكين بالفضيلة وكذلك المؤمنون إذا غيروا مواقفهم فإن ذلك يؤدى إلى سحب النعم الممنوحة لهم ليصبحوا كالظالمين.

- الجزاء الإلهى فى الآجلة: (الحياة الآخرة)

لا يقتصر الجزاء الإلهى على الجزاءات الدنيوية والتى سبق بيانها، بل إن الجزاء الإلهى يمتد إلى الآخرة فهناك عودة للعدالة الإلهية: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾(١)، ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾(٢).

ومن ثم نجد تفرقة واضحة بين المؤمنين الصالحين، والظالمين، فلكل منهم جزاؤه فى الآخرة مما يجعل العمل الدنيوى مرتبطًا أيضًا بالجزاء الأخروى ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾(٣).

ولذا نجد الجزاء الأخروى على نوعين:

- الجنة للصالحين، وفيها نعيم مقيم وخلود دائم.

والنار للعصاة والمفسدين فى الأرض والفجار خالدين فيها أبدا.

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾(٤).

* * *

(١) سورة المؤمنون الآية ١١٥.

(٢) سورة القيامة الآية ٣٦.

(٣) سورة الجاثية الآية ٢١.

(٤) سورة الكهف من الآية ٢٩ - ٣١.